مدخل إلى الأدب العربي

(الشعر)

الأستاذ الدكتور

غريب محمد على(رحمه الله)

أستاذ الأدب والنقد المتفرغ

كلية الآداب – جامعة جنوب الوادي

الدكتور

أشرف أمين جاد أبو زيد

أستاذ الأدب والنقد المساعد

كلية الآداب – جامعة جنوب الوادي

العنوان الرئيس : الأدب العربي
العنوان الفرعي : مدخل إلى الادب العربي(الشعر)
أستاذ المقرر :أ.م.د. / أشرف أمين
كلية : التربية بقنا
قسم : اللغة العربية والدراسات الإسلامية
العام الجامعي : ٢٠٢٢/ ٢٠٢٣م

بيانات الكتاب
الكلية : التربية بقنا
الفرقة : الثالثة/ شعبة التعليم الأساسي
التخصص : اللغة العربية والدراسات الإسلامية
العام الجامعي : ٢٠٢٢ / ٢٠٢٣م
عدد الصفحات :
المؤلفون : أ. د. غريب محمد علي
أ.م.د. / أشرف أمين جاد

(1)

تطور مفهوم كلمة الأدب

شُغِفَ الإنسان منذ القدم بالكشف عن الغامض والمجهول فقاده هذا إلى لون من المعرفة، وحقق له أنماطًا من الوعي، ويمثل الكشف، ابتداء، إشباع حاجة ما في الإنسان لأنه جُبِلَ على أنْ يكون أفضل مما هو عليه، بمعنى أنه يسعى لدرجة من التكامل من جهتي بناء ذاته وتفاعله مع بني جنسه، فضلا عن محاولته لتكوين تصور عن العالم الذي يعيش فيه، ومن ثم في تحديد موقف منها جميعا .

وعلى الرغم من الخصوصية الفردية التي يتسم بها الإنسان فإنه لا يركن إلى الوحدة إذ لابدَّ من تحقيق وجوده وذاته في واقع اجتماعي معين، فهو من هذه الناحية يسعى إلى تمزيق كل محاولة تتسلل فيها الغربة أو الاغتراب ليندمج في الواقع الاجتماعي، وهذا بحد ذاته تجاوز لفردية الإنسان إلى حالة تواصل مع الآخر وتوازن معه، أي تجاوز الفردية إلى لون من الاندماج الاجتماعي .

■ الأدب عند العرب في الجاهلية :

في العصر الجاهلي . وهو أقدم ما يعرف من أدوار تاريخ الأدب العربي . لا توجد نصوص تشير إلى أن كلمة (أدب) فيه كانت تعنى ما تحمله في هذا العصر من معنى ، بل إن هذه الكلمة كانت قد عرفت في معنى ضيق جدًا ، وهو الدعوة إلى مأدبة أو وليمة ،وفي ذلك يقول الشاعر الجاهلي طرفة بن العبد :

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الآدب فينا ينتقر

والجفلى : هي الدعوة العامة ، والآدب هو الداعي ، وينتقر أي يتخير أو يختار ، وبهذا يفتخر الشاعر بأنهم كانوا يقيمون المآدب في الشتاء ، ويجعلونها عامة لكل

عابر سبيل إذ أنهم لم يكونوا يختارون من يحضر إلى تلك المآدب . وهذا معنى ضيق جدًا ، وبعيد كثيرًا عن معنى كلمة (أدب) في العصر الحديث .

ثم عرف العرب من معاني الأدب أنه الخلق المهذب ، والطبع القويم ، والمعاملة الكريمة للناس

■معنى كلمة أدب في عصر صدر الإسلام :

لما جاء الإسلام ووضعت أصول الآداب ، واجتمع المسلمون على أن الدين أخلاق يتخلق بها ، فشت الكلمة، أما حديث (أدبني ربي فأحسن تأديبي) ، ولكن في هذا العصر استخدمه شاعر مخضرم يسمى سهم بن حنظلة الغنوي بنفس المعنى إذ يقول :

لا يمنعُ الناس منِّي ما أردت ولا أعطيهم ما أرادوا حُسنَ ذَا أدبا

■ في عصر بني أمية:

أخذت كلمة (أدب) في عصر بني أمية معنى تهذيب السلوك الذي دلت عليه كلمة (أدب) في عهد النبوة ، لكن اتسع هذا المعنى التربوي التهذيبي ، فأصبح معنىً تربويًا تعليميًا تثقيفيًا وتهذيبيًا . فقد ظهرت في العهد الأموي شخصية (المؤدب) ، وهو المعلم أو الأستاذ ، الذي كان يختاره الخلفاء والأمراء ومَن في حكمهم لتعليم أبنائهم وتهذيبهم ، وكان ذلك التعليم شاملًا لكل علوم العصر بلا استثناء .

وظل معنى (التثقيف) مفهومًا من كلمة التأديب في هذا العصر ، حتى أطلق على طائفة من ممتازي الأساتذة اسم (المؤدبين) ، وهم القائمون بأمور التعليم على النحو المعروف أيام بني أمية ، وهو التعليم بطريق ا لرواية للشعر والأخبار وما يتصل بالعصر الجاهلي . وصارت كلمة (أدب) تدل منذ العصر الأموي على

هذا النوع من الثقافة ، واتاح هذا الاستخدام الجديد لكلمة (الأدب) أن تصبح مقابلة لكلمة (العلم) الذي كان يطلق حينئذٍ على الشريعة الإسلامية وما يتصل بها من دراسة الفقه والحديث النبوي وتفسير القرآن الكريم .

■ في العصر العباسي :

وفي نهاية العصر الأموي وبداية العصر العباسي ، كانت الدولة العباسية قد اتسعت كثيرًا رقعتها الجغرافية ، وتوسعت دواوينها ، فكان من الطبيعي أن يُعنى العلماء والمفكرون بتزويد رجال الحكومة وكتابها بما يلزمهم من ثقافة وإرشادات، وقد ظهرت في تلك الفترة كتب كثيرة تحمل كلمة (أدب) في عناوينها ، وكان القصد منها هو تثقيف رجال الحكومة وكتابها ومن تلك الكتب (الأدب الكبير) ، و (الأدب الصغير) لعبدالله بن المقفع ، و (أدب الكاتب) لابن قتيبة .

فبعد أن عرفت حدود الأدب في القرن الثاني الهجري واشتهرت الكلمة ، بقيت لفظة (الأدباء) خاصة بالمؤدبين ، لا تطلق على الكتاب والشعراء ، واستمرت لقبًا على أولئك في منتصف القرن الثالث ، ومن ذلك كان منشأ الكلمة المشهورة (حرفة الأدب) وأول من قالها الخليل بن أحمد الفراهيدي صاحب العروض المتوفى سنة ١٧٥هـ ، وذلك في قوله كما جاء في المضاف والمنسوب للثعالبي : (حرفة الأدب آفة الأدباء) ؛ لأنهم كانوا يتكسبون بالتعليم ولا يؤدبون إلا ابتغاء المنالة، وذلك في حقيقة معنى الحرفة على إطلاقها .

وهكذا شهد القرن الثالث الهجري تحديدًا لمعنى الأدب ،وأنه المأثور من الشعر والنثر وما يتصل بهما ، أو يفسرهما ، أو يدل على مواضع الجمال فيهما . فهذا محمد بن المبرد المتوفى سنة ٢٥٨هـ يقول في صدر كتابه (الكامل) : (هذا كتاب ألفناه يجمع ضروبًا من الآداب ما بين كلام منثور ، وشعر موصوف ، ومثل سائر ، وموعظة بالغة ...) ، وبنفس هذا المعنى سمى أبو تمام المتوفى سنة ٢٣٢هـ الباب الثالث من ديوان الحماسة الذي جمع فيه مختارات من طرائف الشعر ، باسم (باب الأدب) . وينطبق هذا المعنى تمام الانطباق على (كتاب الأدب) الذي عقده

الإمام البخاري المتوفى سنة ٢٥٦هـ في مؤلفه المشهور في الحديث والمعروف باسم (الجامع الصحيح) .

ولم ينتصف القرن الرابع الهجري حتى كان لفظ (الأدباء) قد زال عن العلماء جملة ، وانفرد بمزيته الشعراء والكتاب في الشهرة المستفيضة ؛ لاستقلال العلوم يومئذٍ وتخصص الطبقات بها .

■ محاولات لاحقة لتعريف الأدب (ابن خلدون أنموذجًا) :

لعل خير محاولة قام بها العرب لتحديد معنى (الأدب) تلك التي قام بها (ابن خلدون) في مقدمته ، إذ قال تحت عنوان (علم الأدب) : (الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارهم ، والأخذ من كل علم بطرف) .

■ مفهوم الأدب في العصر الحديث :

أخذت كلمة (أدب) منذ أواسط القرن الماضي تدل على معنيين :

معنى عام ، يدل على كل ما يكتب في اللغة مهما يكن موضوعه ومهما يكن أسلوبه، سواء أكان علمًا أم فلسفة أم أدبًا خالصًا ، فكل ما ينتجه العقل والشعور يسمى أدبًا .

معنى خاص ، هو الأدب الخالص الذي لا يراد به مجرد التعبير عن معنى من المعاني ، بل يراد به ــ أيضًا ــ أن يكون جميلًا بحيث يؤثر في عواطف القارئ والسامع على نحو ما هو معروف في صناعتي الشعر وفنون النثر الأدبية مثل : الخطابة ، والأمثال ، والقصص ، والمسرحيات ، والمقامات .

وإذا استقرأنا تعريف الأدب ومفهومه لدى أدبائنا في العصر الحديث سنجد أن تعريفاته تتعدد بتعدد وجهات نظر من عرَّفوه:

يورد الدكتور محمد مندور تعريفين للأدب يعتبرهما من أكثر التعاريف شمولًا وانتشارًا عند أدباء ونقاد ومفكري الغرب :

التعريف الأول يقول : (إن الأدب صياغة فنية لتجربة بشرية) . ويبين مندور أن التجربة البشرية عند الغرب تشمل التجربة الشخصية والتاريخية والأسطورية والاجتماعية والخيالية .

التعريف الثاني يقول : (إن الأدب نقد للحياة) .

يعرِّفه الدكتور شوقي ضيف بأنه (الكلام الإنشائي البليغ الذي يقصد به إلى التأثير في عواطف القرَّاء والسامعين سواء أكان شعرًا أم نثرًا) .

ويتفق الدكتور محمد عبد القادر مع الدكتور شوقي ضيف في تعريف الأدب بأنه (الكلام الإنساني البليغ الذي يقصد به إلى التأثير في عواطف القراء أو السامعين أو في عقولهم بالإقناع سواء أكان منظومًا أم منثورًا...ويتمثل في كونه الذخر الإنشائي الذي جادت به قرائح الأفذاذ من أعلام البيان وعبروا به عن خلجات النفس وما يجيش به الوجدان، وما تترنم به العاطفة، ويسبح فيه الخيال، وما توحي به مظاهر الكون وأحوال المجتمع مما في تصويره غذاء للغة وإمتاع للنفس).

ويعرفه حسن شحاتة بأنه (التراث الأدبي الجيد قديمه وحديثه ومادته ... كما قد يُراد به النواحي التي تتصل بالأحكام على نتاج الأدباء، وألوانه ومميزاته في إطار سلسلة التطور التي مرَّ بها هذا التراث من عصر إلى عصر) .

ويعرفه صلاح الدين مجاور ، بأنه (صورة الحياة ـ واقعها، وفنها، وإحساسات أفرادها، وعواطفهم، وجمالها وبهجتها ـ تُعرض في ألوان من التعبير الفني الذي يرقى فكرًا ويعلو أسلوبًا ويسمو معنى) .

ويعرفه رشدي طُعيمة ومحمد مناع بأنه (الفكرة الجميلة في العبارة الجميلة، وهو الكلام الجيد الذي يُحدث في نفس قارئه لذة فنية ويبعث في نفس المتلقي متعة وسرورًا...وقد يتردد الأدب بمعنى التعبير البليغ الذي يحقق المتعة واللذة الفنية بما فيه من جمال التصوير، وروعة الخيال، وسحر البيان، ودقة المعنى، وإصابة الغرض)

تقسيمات الأدب

خضع الأدب لتقسيمات عديدة وفقًا لمناهج دارسيه، فمنهم من قسّمه باعتبار العموم و الخصوص إلى الأدب العام و الأدب الخاص، و الأدب العام يشمل كل ما كتبه العلماء و الأدباء دون مراعاة الخط العازل ما بين اللغة الأدبية الفنية و اللغة العلمية الرصينة. ثمَّ صار لفظ الأدب العام يُطلق على دراسة الحركات الأدبية التجديدية التي تتخطى المعايير القومية فصار يوضع في مقابل مصطلح الأدب المقارن و الذي يدرس علاقات التأثر و التأثير ما بين الآداب القومية في لغاتها الأصلية. أمَّا الأدب الخاص فهو الأدب المتسم بالجمال الفني والعناصر البلاغية.

إلاّ أن من أشهر تقسيمات الأدب، و أكثرها استعمالًا من قبل الدّارسين، طريقتين:

الطريقة الأولى: التقسيم الزمني:

وقد ظهرت فكرة تقسيم الأدب زمنيّا في العصر الحديث. مستمدة في أغلبها من الدراسات الغربية، فتمَّ تقسيم الأدب تقسيمًا تاريخيًا وفقًا للعصور السياسية التي عاصرها الأدب (الأدب الجاهلي، الإسلامي، الأموي...). فقد قُسّم الأدب العربي تقسيمًا تاريخيًّا مرتبطًا بالدّولة او الحقبة الزمنيّة التي يقصدها، و من أمثلة ذلك تقسيم د. شوقي ضيف للأدب العربي في كتابه (العصر الجاهلي)، و د. احمد حسن الزّيات في كتابه (تاريخ الأدب العربي)، حيث قسّموا الأدب إلى ستة عصور، وهي:

العصر الجاهلي: أو ما قبل الإسلام ، وهو تلك الفترة التي حّددها الحاجة بمائة و خمسين عامًا قبل الإسلام.

العصر الإسلامي: منذ بعثة المصطفىﷺ إلى مقتل علي بن أبي طالب-آخر الخلفاء الرّاشدين سنة ٤٠هـ.

العصر الأموي: منذ قيام الدّولة الأموية ٤١هـ إلى سقوطها عام ١٣٢هـ.

العصر العبّاسي: ويقسّم المؤرخون العصر العبّاسي إلى قسمين، أولهما العصر العبّاسي الأول الذي يمتد بعد قيام الدّولة العباسية في عام ١٣٢هـ بمائة عام. والقسم الآخر يسميه المؤرخون: العصر العباسي الثاني، و يبدأ من عام ٣٣٤هـ إلى نهاية الدّولة عام ٦٥٦هـ.

العصر العثماني والمملوكي: يحدد باستيلاء التتار على بغداد إلى دخول نابليون وحملته الفرنسية عام ١٢١٣هـ.

العصر الحديث: و يحدّد بدخول الحملة الفرنسية إلى مصر في عام ١٢١٣هـ إلى الوقت الحاضر.

أمّا د. عمر فرّوخ فقد قسّم الأدب باعتبار القِدم و الحداثة، فالأدب عنده ثلاثة أقسام: (الأدب القديم) و (الأدب الحديث). و يزيد عصرًا بين هذين العصرين و يسمّيه (الأدب المحدّث). فالأدب القديم عنده يضم العصر الجاهلي إلى سقوط الدولة الأموية، أما العصر المحدّث فيعني الأدب من زمن سقوط الدّولة الأموية إلى نهاية العصر العثماني في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي. و الأدب الحديث يبدأ من مطلع القرن التّاسع عشر إلى اليوم. و لا يخرج تقسيم د. حنّا الفاخوري عن هذا النّهج، إلاّ أنّه وضع الأدب في قسمين هما: (الأدب القديم) و (الأدب الحديث). كل عصور ما قبل النّهضة تندرج عنده تحت طائلة الأدب القديم في مجلّد مستقل. و ما بعد النّهضة يطلع عليه اسم (الأدب الحديث) في مجلّد آخر.

الطريقة الثانية: التقسيم الفنّي:

ويعني تقسيم الأدب باعتبار فنونه إلى قسمين رئيسين هُما الشعر و النثر. و هذا التقسيم هو التقسيم الأشهر و الأكثر رسوخًا في الذهنية العربية. و النثر في تقاليد الأدب العربي لا يدخل في مجال الأدب إلا إذا كانَ نثرًا فنيًا، أي كالخطب و المقامات و الرسائل و القصص و الروايات.. أمَّا الشعر فقد جعله اليونان قبل الميلاد في ثلاثة أقسام هي (الشعر الملحمي، الشعر التمثيلي، الشعر الغنائي). و سنتعرف على هذه التقسيمات و تعريفاتها فيما بعد.

القسم الأول: الشعر:

الأصل اللغوي لكلمة شعر هو ما أشعرك أي ما أثار مشاعرك، و يعرفه قدامة بن جعفر في كتاب (نقد الشعر) بقوله: " الشعر قول موزون مُقفى يدل على معنى"، و هذا التعريف قاصر لأن الناقد ركَّز فيه على الجانب الموسيقي و أهمل الجوانب الأخرى. أمَّا النُقاد في العصر الحديث فقد انقسموا في مفهومهم للشعر إلى قسمين، قسم يتمسك بُعرى الثقافة العربية القديمة، و قسم متأثر مفتون بالثقافة الغربية. و وُجدَ بينهما فريق ثالث يحاول المواءمة بين الثقافة العربية و الثقافة الأجنبية.

١/ تعريف طه حسين: الشعر هو الكلام المقيَّد بالوزن و القافية و الذي يُقصد به إلى الجمال الفني الذي يلائم ذوق العصر و يتصل بنفوس الناس.

و يعرّفه ثانية باختصار قائلًا: "لغة مُنغمَّة انفعالية مُثيرة للعواطف تنبع من وجدان الشاعر و أحاسيسه"

٢/ عباس محمود العقاد: يتفق العقاد مع طه حسين في الاهتمام بالوزن و القافية و الاهتمام بالجانب النفسي، و الشعر عنده تجربة ذاتية تنبع من أعماق الشاعر يعبر فيها عمَّا يحس و يشعر و ليست شيئًا مفروضًا عليه من خارج ذاته.

٣/ ميخائيل نعيمة: يعرِّف الشعر بأنه "هو لغة النفس التي تُساق في عبارة جميلة التركيب موسيقية الرنة."

و يختلف ميخائيل نعيمة مع طه حسين و العقاد في أهمية الوزن حيث يرى العقاد أن الموسيقى من ضرورات الشعر و لوازمه في حين يقول ميخائيل نعيمة : " فلا الأوزان و لا القوافي من ضرورات الشعر، كما أنَّ المعابد و الطقوس ليست من ضرورات الصلاة و العبادة، فربَّ عبارة نثرية جميلة التنسيق موسيقية الرنة كانَ فيها مِنْ الشعر أكثر مما في قصيدة من مائة بيت" و ميخائيل نعيمة لا ينكر أهمية الوزن لكنه يرى أنَّه يلي عنصر الوجدان و العاطفة، فالشعر عنده شكل و مضمون، و في رأيه سبقت الأفكار و العواطف في الوجود. فالأوزان نشأت نشوءًا طبيعيًا و كان سبب ظهورها ميل الشاعر إلى تلحين عواطفه و أفكاره، لذلك لحقَ الوزن بالشعر و نما معه نموًا طبيعيًا.

و نلحظ على التعريفات السابقة – و أصحابها مِنْ أقطاب مدرسة التجديد في الأدب العربي – أنها برغم اختلافها تتفق على أنَّ الشعر كلام منغم مثير للعواطف.

٤/ عز الدين إسماعيل: الشعر لغة تركيبية بينما النثر لُغة تحليلية. الألفاظ ملك لجميع الناس لكنَّ اللغة في الشعر تبدو تركيبية و ذلك لأنَّ التركيب عملية يقتضيها العمل الشعري، في حين أن الناثر في حاجة للتحليل و هكذا نرجع لفكرة أولية تقول أن الشعر انفعال، و النثر تفكير. و طبيعة الانفعال أنه ينتقل جملة و لا يثبت للتحليل إلا في يد الدارس، فالشعر وحدة متنقلة لا تتكون في النفس على نحو ما يتكون التفكير المنطقي المنظم. و لا هي تتبع الطريق الذي يسلكه ذلك التفكير في صورة لفظية تحليلية. و تجربة الشاعر وحدة تدفعه إلى انتاج تركيب

مُعين و هو يستخدم في ذلك اللغة. و إذا نحن وضعنا هذا في الاعتبار يتضح لنا الخطأ في محاولة فهم طبيعة الشعر من خلال نثره، كما يفعل البعض حين ينقلون القصيدة من صورتها الشعرية إلى صورة النثرية. و يعدُّ هذا قتلًا للشعر.

تقسيمات الشعر:

للشعر تقسيمات عديدة من بينها (الشعر الملحمي، الشعر التمثيلي، الشعر الغنائي، الشعر التعليمي).

الشعر الملحمي: الملحمة لغةً هي الموقعة العظيمة و منه تلاحم القوم أي تقاتلوا. و الشعر الملحمي هو قصة شعرية قومية بطولية خارقة للمألوف يختلط فيها الخيال بالحقيقة و التاريخ بالأساطير.

و تطول قصائد هذا اللون من الشعر حتى تصل آلاف الأبيات، ولكنها على طولها لا بد لها من وحدة هي حدثها الرئيسي وشخصيتها الرئيسية التي تمضي بالأحداث إلى نهايتها .ثم تتفرع أحداث ثانوية وشخصيات مساعدة. و أقدم ما عرفه تاريخ الأدب العالمي من هذا الجنس الشعري ملحمتا الإلياذة والأوديسة لشاعر اليونان هوميروس، وموضوع الإلياذة تلك الحرب القاسية بين اليونان ومملكة طروادة، وأما الأوديسة فتصور عودة اليونانيين إلى بلادهم عقب المعركة. والملحمتان تحكيان ألوانًا من المشاعر المتباينة، من الغدر والوفاء، والحب والبغض، كما تصور أحداثًا دامية عنيفة، وتحكي أسطورة فتح طروادة بهيكل الجواد الخشبي، كما تحكي عن شخصيات الأمراء والقواد مثل أخيل و أجاممنون و أجاكس و هيكتور وغيرهم .وبلغت الإلياذة ستة عشر ألف بيت من الشعر على وزن واحد. وقد عرف الرومان الملاحم على يد شاعرهم فيرجيل حين كتب الإنيادة مستلهمًا ملحمتي هوميروس .وموضوعها مغامرات البطل إينياس.كما عرف الفرس ملحمة الشاهنامه التي تحكي أحداث مملكة الفرس . وكذلك كتب الهنود ملحمة

المهابهاراتا في مائة ألف بيت حول صراع أبناء أسرة واحدة على الملك مما أدّى إلى فنائهم جميعًا.و لم يعرف الأدب العربي هذا اللون من القصص أو الملاحم في شعره القديم ولكن في العصر الحديث حاول الشعراء العرب استلهام التاريخ قديمه وحديثه لتصوير البطولات العربية الإسلامي. فكتب الشاعر المصري أحمد محرم (الإلياذة الإسلامية) في أربعة أجزاء يحكي في الجزء الأول حياة الرسول بمكة ثم هجرته إلى المدينة، كما يتناول غزواته وأحداثها وبطولاتها ويستمر الحديث عن الغزوات والبطولات في الجزأين الثاني والثالث .أما الجزء الرابع فيخصصه للحديث عن الوفود التي قدمت على الرسول والسرايا التي اتجهت إلى مختلف أنحاء الجزيرة العربية.

كما فعل خليل مطران في قصيدة قصصية عنوانها فتاة الجبل الأسود تصور ثورة شعب الجبل الأسود ضد الأتراك. ومحورها بطولة فتاة تنكرت في زيّ فتى واقتحمت موقعًا للأتراك، وقتلت بعض رجالهم، وعندما أُسرت اكتشف الأتراك حقيقتها فأعجبوا ببطولتها وأطلقوا سراحها.

و قد قل شأن هذا اللون في العصر الحديث إذ لم يعد الإنسان تطربه خوارق الأساطير المعنة بالخيال بقدر اهتمامه بأحداث الحاضر المعبّر عن واقعه وهمومه وآماله وآلامه

الشعر التمثيلي أو المسرحي: و تعود نشأة هذا النوع إلى اليونان الذين عرفوا أول مسرحية شعرية. فقد ظهر المسرح عندهم في كنف الدين، و كانَ عبارة عن أغنيات مرحة في البداية ترددها جوقة غنائية و كان لا بد أن تحتوي هذه الأغنيات على حدث، و قد أخرج اليونان مسرحيات شعرية مشهورة مثل (أوديب ملكًا).و مسرحية (الضفادع).

و عرف الشعر التمثيلي نوعين هما:

المأساة التي تصور كارثة وقعت لشخص من ذوي المكانة العالية وتكون نهايتها محزنة إما بموت البطل وإما باختفائه. والملهاة التي تتناول أشخاصًا ليسوا من ذوي المكانة العالية وتحكي وتصور حوادث من حياة الناس اليومية مركزة على العيوب أو النقائص التي تثير الضحك. و قد اقترن الشعر التمثيلي منذ نشأته بالغناء والموسيقى، ثم بدأ الأداء التمثيلي يبعد شيئًا فشيئًا عن دنيا الغناء حتى انتهى الأمر إلى لونين هما المسرحية التمثيلية والمسرحية الغنائية

و قد اتجهت المسرحية التمثيلية للنثر الخالص وتركت الشعر؛ لأن قيود الشعر جعلت إدارة الحوار بين الشخصيات يبدو متكلّفًا كما أنها تضعف الحركة اللازمة في المسرحية. و من أشهر من كتبوا هذا اللون من الشعر قديمًا سوفوكليس وأرسطو فانيس في الأدب اليوناني. وراسين و موليير في الأدب الفرنسي . وشكسبير و برنارد شو في الأدب الإنجليزي. و لم يكن الشعر التمثيلي موجودًا في الأدب العربي، و في العصر الحديث حاول أحمد شوقي إيجاده فكتب ست مسرحيات شعرية، ثلاث منها تحكي عن العواطف الوطنية الملتهبة وهي مصرع كليوباترا و قمبيز و علي بك الكبير واثنتان تصوران طبيعة الحب والعاطفة في التراث العربي هما: مجنون ليلى و عنترة والسادسة ملهاة مصرية بعنوان السِّت هدى. ثم جاء عزيز أباظة وأكمل ما بدأه شوقي من الشعر التمثيلي فكتب شجرة الدر؛ قيس ولُبنى؛ العباسة والناصر؛ غروب الأندلس؛ قافلة النور ثم أخذ الشعراء المعاصرون من المسرح الشعري شكلًا رمزيًا حين اتجهوا له؛ فاستفادوا من طاقة الشعر وشفافيته في تصوير المشاعر والأفكار برقة وحساسية .فكتب صلاح عبد الصبور وعمر أبو ريشة، وعبد الرحمن الشرقاوي وغيرهم، مسرحيات شعرية.

الشعر الغنائي: و هو الشعر الوجداني الذاتي الذي يعبر عن العواطف الخالصة من فرح وحُزن وحب وبغض وما إلى ذلك . ويعد هذا اللون أقدم أشكال الشعر في الأدب العربي، فقد كان الشعراء القدامى يعبرون تعبيرًا خالصًا عن هذه المشاعر الإنسانية وقد يكون هذا التعبير مصورًا لذات الشاعر ومشاعره، كما ارتبط منذ

نشأته بالموسيقى والغناء، ومن هنا سمي بالشعر الغنائي. هذا اللون من الشعر استأثر بطاقة الشعر العربي، وفجر ينابيعها الفنية حين تحوّل إلى موضوعات وأغراض، كالغزل والوصف والحماسة والمديح والرثاء والهجاء والفخر والزهد والحكمة. وقد استمرت موضوعات الشعر الغنائي في التعبير عن الذات الإنسانية وعن تقلباتها وعن أفراحها وأحزانها حتى وقتنا الحاضر. و قد أوشك فن الشعر أن ينحصر في هذا النوع في العصر الحالي، فقد اختفى شعر الملاحم، كما تحل النثر محل الشعر في الأدب التمثيلي.

و بهذا نستنتج أن الشعر العربي بدأ غنائيًا ثمَّ مرَّ في العصر الحديث بمحاولات صياغة جديدة مثل الشعر الملحمي و الشعر المسرحي. أمَّا الشعر الغربي فقد بدأ ملحميًا و مسرحيًا و غنائيًا. ثمَّ انتهى إلى الشعر الغنائي.

القسم الثاني: النثر

لقد أمعنَ النقاد القدامى في بحث الشعر من جميع نواحيه تفصيلا وتدقيقا على حد الإفراط أحيانا، و أهملوا فن النثر. ولعل من مظاهر هذا الإهمال أننا لا نجد تعريفا صحيحا للنثر قد استوفى ما يشترط في كل تعريف صالح من دقة وإحاطة واستقصاء ، في حين أن الشعر قد حظي بتعريفات لا بأس بها تتسم بالضبط والإحكام، أما النثر فما ورد في حقه من تعريفات لا تتعدى التقسيم والتصنيف، فهو باعتبار الشكل ينقسم إلى خطب ورسائل، وباعتبار اللفظ يتفرع إلى نثر مرسل ومزدوج وسجع.

و لم يصلنا عن العصر الجاهلي من النثر إلا أقل القليل، ولعل السبب في ذلك يتمثل في الآتي:

- سهولة حفظ الشعر لما فيه من إيقاع موسيقي، و صعوبة حفظ النثر.

- الاهتمام بنبوغ شاعر في القبيلة يدافع عنها ويفخر بها.

- قلة أو انعدام التدوين، والاعتماد على الحفظ والرواية.

و بالرغم من عدم وجود أي سجل أو كتاب مدون يحتوي على نصوص النثر الجاهلي يعود تاريخه إلى تلك الفترة من الزمن الغابر، إذ كان الناس يحفظونها ويتناقلونها عن طريق الرواية الشفاهية، مثل الشعر، وهذا ربما سبب قلتها، وكذا موقف الإسلام من بعضها، وبالرغم من ذلك فان الدارسين المحققين لهذا التراث الأدبي العربي ذكروا من أنواع النثر الأدبي في تلك الفترة خاصة بعض الأنواع منها:

الخطابة، القصص، الأمثال، الحكم، الوصايا، النثر المسجوع.

الطريقة الثالثة: التقسيم الموضوعي التفاعلي:

ونعني به تقسيم الأدب بحسب أدواره و مهامّه في حياة النّاس، أو الفئة التي يخصّها و يعنيها. و ذلك من مثل: أدب الأطفال أو أدب الدّعوة الإسلامية. فهذان النوعان لا يرتبطان بزمنٍ معيّنٍ و لا بجنس أدبي مختص، بل هو نوعٌ يشتمل على كلّ الأجناس الأدبية و يقصد إلى فئة بعينها. و من المصطلحات الناشئة عن تقسيم الأدب، مصطلح الأدب النسائي، و يُطلق هذا المصطلح على كل ما تكتبه النساء من فنون أدبية، و قد ميّز البعض بين مصطلحي (الأدب النسائي) و (الأدب النسوي). فجعلوا الأدب النسائي شاملًا لكتابات النساء عمومًا، أمَّا الأدب النسوي أو الكتابة النسوية فخصّوا به الكتابة عن قضايا النساء وهمومهنَّ و يرتبط مصطلح (نسوي) في معناه بالخطاب التنويري الذي ساد في أوروبا و نادى بمناصرة حقوق النساء.

أما أدب الأطفال: فيمكن تعريف بأنه: "خبرة لغوية في شكل فني، يبدعه الفنان، وبخاصة للأطفال فيما بين الثانية والثانية عشرة أو أكثر قليلًا، يعيشونه ويتفاعلون معه، فيمنحهم المتعة والتسلية، ويدخل على قلوبهم البهجة والمرح، وينمي فيهم الإحساس بالجمال وتذوقه، ويقوي تقديرهم للخير ومحبته، ويطلق العنان لخيالاتهم وطاقاتهم الإبداعية، ويبني فيهم الإنسان". كما يعرف أدب الأطفال بأنه: "شكل من أشكال التعبير الأدبي، له قواعده ومناهجه، سواء منها ما يتصل بلغته وتوافقها مع قاموسه الطفل، ومع الحصيلة الأسلوبية للسن التي يؤلف لها، أم ما يتصل بمضمونه ومناسبته لكل مرحلة من مراحل الطفولة، أم يتصل بقضايا الذوق وطرائق التكنيك في صوغ القصة، أو في فن الحكاية للقصة المسموعة". و يعرّفُ في مجموعه بأنّه هو: "الآثار الفنية التي تصور أفكارًا وأحاسيس وأخيلة تتفق ومدارك الأطفال وتتخذ أشكال القصة والمسرحية والمقالة والأغنية". وفي ضوء ما سبق، يمكن أن نجد لأدب الأطفال في المرحلة العمرية التي يدور حديثنا حولها، مفهومين رئيسيين:

١.أدب الأطفال بمعناه العام: وهو يعني الإنتاج العقلي المدون في كتب موجهة لهؤلاء الأطفال في شتى فروع المعرفة؛ مثل: كتب الأطفال العلمية المبسطة، والمصورة، وكتبهم الإعلامية، ودوائر المعارف الموجهة إلى الأطفال.

٢.أدب الأطفال بمعناه الخاص: وهو يعني الكلام الجيد الذي يحدث في نفوس هؤلاء الأطفال متعة فنية سواء أكان شعرًا أم نثرًا، وسواء أكان شفويًا بالكلام، أم تحريريًا بالكتابة؛ مثل قصص الأطفال ومسرحياتهم وأناشيدهم وأغانيهم وما إلى ذلك.

أمّا أدب الدّعوة الإسلاميّة هو: هو كل أدب يصدر عن عاطفة الإسلام - شعرا أو نثرًا - وقد يكون مدحًا أو هجاء أو حماسة ، أو حكمة، يرادُ به وجه الله و خدمة دينه الحنيف. وهناك كذلك ما يُسمّى بأدب الرِّحلات نوع من الأدب الذي يصور فيه الكاتب ما جرى له من أحداث وما صادفه من أمور في أثناء رحلة قام بها لأحد البلدان. وتُعد كتب الرحلات من أهم المصادر الجغرافية والتاريخية والاجتماعية، لأن الكاتب يستقي المعلومات والحقائق من المشاهدة الحية، والتصوير المباشر، مما يجعل قراءتها غنية، ممتعة و مسلية. عدد كبير من الروايات والقصص يمكن أن يندرج بصورة ما تحت مسمى أدب الرحلات، فهذا المسمى الواسع كما نرى قادر على استيعاب أعمال ابن بطوطة وابن جبير و ابن فضلان وماركو بولو وتشارلز داروين وأندريه جيد وأرنست همنجواي ونجيب محفوظ، رغم التباين الكبير فيما بينهم؛ لأن الفكرة التي تجمعهم هي فكرة الرحلة نفسها، الرحلة الزمانية أو المكانية أو النفسية.

عناصر الأدب

الأدب بطبيعته متصل اتصالًا مباشرًا ووثيقًا بأنحاء الحياة المختلفة، سواء المتصلة بما يمس الشعور أو بما يمس العقل و الحاجات الماديّة، و بهذا يكون الأدب هو روح العصر و نتاج المجتمع لأنه يصور ميزات الأمة النّفسية و العقلية، و عيوبها ومثاليتها و محاسنها، و احوالها السياسية و الاقتصادية. و لتصوير هذا أو بعضه كان على الأدب أن يجمع بين عناصر أربعة هي أربعة: العاطفة، و الخيال، و الفكرة ، و الأسلوب.

١/ العاطفة: و هي الحالة الوجدانية التي تدفع الإنسان إلى الميل للشيء ، أو الانصراف عنه ، وما يتبع ذلك من حب أو كره ، وسرور أو حزن ، ورضا أو غضب. و قد تنبه لها نقادنا القدماء. فابن رشيق مثلا يقول في كتاب (العمدة في محاسن الشعر و نقده) أن قواعد الشعر أربعة هي الرغبة و الرهبة و الطرب و الغضب. فمع الرغبة يكون المدح و الشكر، و مع الرهبة الاستعطاف أو الاعتذار. و مع الطرب يكون الشوق و رقة النسيب. و مع الغضب يكون الهجاء و التوعد و العتاب الموجع. و الأدب يعتمد على عنصر العاطفة بشكل كبير و لهذا نجد هذا العنصر مقترنًا غالبًا بماهية الأدب. و من عادة الفنون أن يكون للشعور فيها دور كبير. و يرى البعض أن العاطفة هي التي تُكسب العمل الأدبي صفة الخلود. فقد قال البعض بأنه لا بد أن تكون العاطفة صادقة و سامية. و أن لا يعتمد الأدب على تنشيط العواطف المريضة كما يحدث في الأدب المكشوف، و صدق العاطفة يعني بُعدها عن الزيف و المبالغة. و الادعاء و الانفعال الكاذب.

٢/ الخيال: يُطلق في اللغة على الطيف و الظل. و قد يُطلق على الوهم فيقال خيَّل له كذا و كذا. أمَّا في الاصطلاح فهو أحد الملكات العقلية التي تجسد المعاني و الأشياء والأشخاص ، وتمثلها أمامنا حتى تثير المشاعر وتهيج الإحساس. وهو عنصر أصيل في الأدب كله ، وفي الشعر بوجه خاص . وهو يقل في شعر الحكمة مثلًا، ويكثر في الأغراض الأخرى للشعر الوجداني كالغزل و الرثاء...
وتتجلى أهمية الخيال حينما نرى كيف يبدع الشاعر في تصوير مشاهد مألوفة في

حياتنا ، قد اعتدنا على رؤيتها، لكن الشاعر يبث فيها الحياة والحركة ، ويصورها و كأنها ماثلة أمامنا.

٣/ الفكرة أو المعنى: من الطبيعي أن يتضمن العمل الأدبي فكرة أو معنى يقوم عليه، و نحنُ لا نريد من الأديب أن يجعلنا نفكر بقدر ما نريد منه أن يجعلنا نشعر و ندرك حقائق الأشياء من خلال الإحساس. و حديثنا عن الأفكار أو المعاني لا يعني أنها ممكن أن تُفصل أو تُلاحظ بشكل مُنفصل. فالعمل الأدبي وحدة واحدة لا تتجزأ. و لا يمكن أن نرد الجمال فيه لجمال الفكرة وحدها أو لجمال اللفظ وحده.

٤/ الأسلوب: و هو الطريقة التي يلجأ إليها الأديب للتعبير عَنْ الأفكار و العواطف، أو هو القالب الذي يصب فيه الأديب هذه و تلك. فالأسلوب : صورة عامة تطبع الكلام بطابع خاص.

أولية الشعر العربي

إنّ تحديد عصر أدبي يعتمد أساسًا على مجموع الخصائص الفنية المشتركة بصورة عامة في فترة زمنية محددة، وفي بيئة يساعد على انتشار هذه الخصائص فيها علاقاتٌ اجتماعيةٌ، لها أهميتها في توحيد سماتها العامة. والعصر الأدبيّ يستمدّ باستمرار تلك الخصائص حيّة شائعة في البيئة، وينتهي أو يتغير بظهور مؤثرات جديدة تنقلها من عصر أدبي إلى عصر أدبي آخر(١).

وحين نتحدث عن القصيدة الجاهليّة ينبغي لنا أن نشير إلى أننا نتحدث عن القصيدة المكتملة التي أرسى مهلهل وامرؤ القيس تقاليدها الفنية، ثم أورثوها أجيال الشعراء بعدهما، أما النماذج التي سبقت هذين الشاعرين، فان القليل النادر الذي تنقله مصنفات القدامى منها، لا يشير إلى نضج واستواء يتيحان

١- د. سيد حنفي : الشعر الجاهليّ ، مراحله واتجاهاته الفنية ، ص٦.

للدراسة فرصة الفوز بما يعين على تحديد أبعاد فكرية وفنية واضحة (١)، وذلك ما يعزز لدينا قيمة الحقائق التي قررها القدامى قبلنا، وضمّنوها نتائج بحثهم في هذه المسألة الدقيقة، كقول ابن سلاّم: " لم يكن لأوائل العرب من الشعر الاّ الأبيات يقولها الرجل في حادثة، وإنما قُصّدت القصائد، وطُوّل الشعر، على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف(٢)" . وقول الجاحظ:" أما الشعر، فحديث الميلاد صغير السنّ، أول مَنْ نهج سبيلَهُ، وسهّل الطريقَ إليه امرؤ القيس بن حُجْر ومهلهل بن ربيعة ... فإذا استظهرنا الشعر، وجدنا له – إلى أن جاء الإسلام – خمسين ومئة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار، فمائتي عام(٣)، وقول ابن رشيق الذي جمع فيه بين القولين السابقين: " زعم الرواة أن الشعر كلّه إنّما كان رجزًا وقطعًا، وأنه انما قُصّد على عهد عبد المطلب بن عبد مناف، وكان أول مَنْ قصّده مهلهل وامرؤ القيس، وبينهما وبينَ الإسلام مئة ونيّف وخمسون سنة".(٤)

اعتراض المحدثين

وقد أثار الباحثون المعاصرون جملة اعتراضات على هذا، لأن الشعر الجاهليّ الذي في حوزتنا بعضه الآن بلغ مرحلة ناضجة مكتملة من الوزن والتعبير والتركيب والبلاغة والأداء. يقول جويدي : " ان قصائد القرن السادس الميلادي جديرة بالإعجاب، وتنبئ بأنها ثمرة صناعة طويلة . فان ما فيها من كثرة القواعد والأصول في لغتها، ونحوها، وتراكيبها، وأوزانها، يجعل الباحث يؤمن بأنه لم

١- انظر النماذج التي وردت في طبقات ابن سلام، تحقيق محمود محمد شاكر ، ص ٣٣-٣٤.

والبيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون، ٣٢٨/٣. والعقد الفريد تحقيق محمد سعيد العريان ٢٥٨/٣

٢- ابن سلام : طبقات فحول الشعراء، ٧٤/١

٣- الجاحظ : الحيوان ٧٤/١

٤- ابن رشيق : العمدة ، ١٨٩/١

تستو لها تلك الصورةُ الاّ بعد جهود عنيفة، بذلها الشعراء في صناعتها . وإن في موسيقا الشعر ما يفسر بعض هذه الجهود...(١)".

ويرى حسين مروّة أنه لا يجوز لنا أن نظُن أن البنيةَ اللغويةَ، والصفاتِ الفينولوجيةَ، والبنيةَ الأسلوبيةَ للغة الشعر والنثر الجاهليّين في القرنين الخامس والسادس للميلاد ولدت كلّها من البداية في هذين القرنين: لقد ظهر الإسلام في شبه الجزيرة فوجد اللغة المعبرة عن دعوته بمبادئها، وتفسيراتها للعالم، وتشريعاتها، حاضرة وقادرة على أداء كل ذلك. سواء بدلالاتها السابقة المباشرة، أم بالدلالات الجديدة غير المباشرة، مما حملت من مبادئ وعقائد وتشريعات : أي انه وجد أداته اللغوية والبيانية الناضجة، لا للتعبير عن الظروف التاريخية الناضجة لظهوره فحسب، بل للتعبير عن احتمالات الظروف التاريخية الآتية بعد ظهوره كذلك" (٢).

فاستواء الشكل الفني، والصنعة الدقيقة لهذا الشعر يثبتان أن هناك مراحل أكثر تقدمًا سبقت عصر امرئ القيس ومهلهل، وهي مراحل نما فيها الشعر، وتطور من صورته الأولى (الرجز او الحداء) حتى وصل إلى هذا المستوى المكتمل عند أقدم شاعرين، وصل إلينا شعرهما. يقول كارل نالينو: "إن مَنْ يسرّح أبصاره في رياض الشعر الجاهليّ لا يجد في شذراته التي نجت من أيدي الضياع ما يدلّ على كونه فنًا صغير السنّ، فان جميع ما نقل الينا منه يظهر لنا في غاية الاتقان وزنًا، وتقفية، وفي نهاية التفنّن... وليس من الممكن مثل هذا الكمال في صناعة حديثة، لأن من المعلوم أن كل مبتدئ لشيء لم يسبق إليه، وكل مبتدع لأمر لم يتقدم فيه عليه، لا بد أن يكون قليلًا ثم يكثر، وصغيرًا ثم يكبر... وخلاصة الأمر أن العلماء من العرب الذين قالوا مدة مئة وخمسين سنة تقريبًا للشعر

١- د. شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر ص ١٨.

٢- حسين مروّة : النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية ، ص ١٨٤

الجاهليّ يبعدون عن الصواب، إذا فرضنا أنهم أرادوا بذلك ما وصل إلينا من الأشعار القديمة ".(١)

أما د. عمر فروّخ فقد ذهب إلى أبعد من ذلك، فرأى أن الشعر الجاهليّ ليس وليد مئتي سنة قبل الهجرة، ولا ألف سنة ايضًا، بل انه قديم جدًا . ويرى أن الشعر الذي وصل الينا " من الجاهليّة يمثل دورًا راقيًا، لا يمكن أن يكون قد بلغ إليه في أقلّ من ألف سنة على الأقل"(٢).

وراح هؤلاء الباحثون المعاصرون وغيرهم يبحثون عن أصول الشعر في السّجع، أو الحداء، أو الغناء(٣)، والرجز(٤)، ونحن لا نريد أن نناقش هذه الاعتراضات، ولكن لنا أن نطمئن إلى أن العلماء الذين قرروا هذه الحقيقة أقرب الباحثين إلى العصر الجاهليّ، فهم أدرى بما يتحدثون عنه، وأنهم احتاطوا لأنفسهم، حين توخّوْا الدقة العلمية، فقرروا أنهم يتحدثون عن أولية القصيدة، لا أولية الشعر العربي . فضلًا عن أن العلماء الذين عاصروهم حاولوا ان يفوزوا بما يغير من الحقيقة، أو يعدّلها، فانتهى تنقيرهم إلى أسماء شعراء أسبقَ من مهلهل وامرئ القيس، لم تحتفظ ذاكرة الرواة الاّ بأبيات لكل منهم، قالها في حادثة، فكانت نتيجة ذلك كله دعم موقف ابن سلام، ومَنْ تابعه من العلماء .

١- كارل نالينو: تاريخ الآداب العربية ص ٦٨

٢- عمر فروخ : المنهاج الجديد ٢٧/١

٣- انظر : نجيب محمد البهيتي : تاريخ الشعر العربي ص ٤-٥ ،ونوري حمودي القيسي : تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام ، ص ٤٣ وما بعدها .

- كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ٥٠/١

٤- أشار أبو عبيدة معمر بن المثنّى إلى ابن حذام، الذي ذكره امرؤ القيس في ميمية ، انظر جمهرة أشعار العرب ، لابي زيد القرشي ، تحقيق محمد البجاوي ٦٥/١

فساد التقسيم السّياسي للأدب :

إن تقسيم عصور الأدب بحسب التاريخ السياسي فيه افتئات على تطور الشعر، وعلى طبيعة هذا التطور، لأنه لا يرتبط بالأحداث السياسية ارتباطًا كاملًا. ويجب التنبيه إلى أن هذه الحدود الزمانية التي وضعها مؤرخو الأدب " ليست الاّ حدودًا صناعية اصطلاحية أثبتوها على وجه التقريب، فان عصرًا ما من تاريخ الأدب لا يحصر في مواقيت معينة بذلك ... لأن التغيّر في الأدب، والانتقال من حال إلى حال لا يحصل الاّ بالتدريج البطيء حتى لا يُشعَر – في الأغلب – بالفروق بين الدرجة القادمة، والدرجة التالية لها " (١).

وأول مَنْ خرج على هذا التقسيم السياسي المستشرق "جب" ثم تبعه بلاشير الذي يقول : إننا لا نحتاج إلى إمعان النظر، والتفكير، لكي ندرك أن مثل هذا التقسيم يقوم على خبط عشواء، لأنه لا يستوفي الاعتباراتِ الأدبيةَ ... فالرسالة النبوية، مثلًا، أحدثت انقلابًا عظيمًا في حياة العرب السياسية، والدينية، والاجتماعية، ولكنها لم تدفع الشعراء المخضرمين إلى الخروج على مذاهبهم التقليدية في الشعر "(٢).

١- كارل نالينو : تاريخ الاداب العربية ص ٦٠-٦١

٢- بلاشير : تاريخ الأدب العربي ، العصر الجاهليّ ٩٢/١

قضية انتحال الشعر

كانت الرواية الشفوية القناة الواسعة التي تدفق عبرها الشعر الجاهلي، حتى وصل إلى عصر التدوين .

وكل أثر له قيمته وأهميته يكون عرضة للشك والاتهام : في أصله، ونسبه وأصحابه، وصحته، وصدقه ...

والأدب في كل أمة من الأمم، وبخاصة ما فيه من نصوص رائعة، من الآثار الفنية الممتازة التي تعتز بها الأمم وتفتخر، وتعتبرها دليل مجدها، وسجل مفاخرها، ومن ثم تعرضت الآداب القديمة في كل الأمم للشك والاتهام (١) . فاتهم الأدب الجاهلي بالوضع والتزوير، ولم تكن هذه الملاحظة لتغيب عن التقات من العلماء والرواة والباحثين منذ جَمْع الأدب الجاهلي وتدوينه، فقد تنبهوا إلى ذلك، ووقفوا على النصوص التي ليست أصيلة، فعرفوها ولم يقبلوها، واستطاعوا أن يميزوا بين الأصيل والمختلق، ويتبينوا الصحيح من الزائف . ومن هؤلاء العلماء

ابن سلاّم :

لعل أهم فكرة شغلت بال ابن سلاّم وأولاها الكثير من عنايته وبحثه هي فكرة الانتحال، أو فكرة الشعر المصنوع الذي ينسب للجاهليين، وليس منهم في شيء .

وهذه الفكرة التي تعد خطرا على الشعر، قد عرض لها ابن سلام في مقدمة كتابه " طبقات فحول الشعراء " . والحديث عن انتحال الشعر في عصره كان طبيعيا، فهو عصر بدأ الاهتمام بالرواية فيه يقل، والعناية بالتدوين تزداد .

---

١ – انظر : د . ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ، ص ٢٨٧ وما بعدها .

ولهذا كان لا بد لصوت كصوته أن يرتفع محذرا ومنبّها، حتى يتشدد مدوّنو الشعر في تمحيص النصوص وتحقيقها، وحتى تكون الأجيال القادمة من بعده على علم وبصيرة بأمر هذا الانتحال الذي أصاب بعض الشعر الجاهلي .

بواعث الانتحال :

وقد حصرها ابن سلام في سببين :

السبب الأول : يتمثل في قلة أشعار بعض القبائل العربية بعد انتهاء عصر الفتوح الإسلامية، بسبب موت حملة هذه الأشعار من رجالهم أو قتلهم . فيقول : " لما راجعت العرب رواية الشعر وذكر ايامها ومآثرها استقل بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم، وكان قوم قد قلّت وقائعهم وأشعارهم، وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار، فقالوا على ألسن شعرائهم، ثم كانت الرواة بعد فزادوا في الأشعار (١) " .

فالقبائل كانت تتزيد في الأشعار، وتروي على ألسنة الشعراء ما لم يقولوه وقد أشار ابن سلام مرارا إلى ما زادته قريش في أشعار الشعراء، فهي تضيف إلى شعرائها منحولات عليهم .

ويذكر أن من أبناء الشعراء وأحفادهم مَنْ كان يقوم بذلك، مثل داود بن متمم بن نويرة فقد استنشده أبو عبيدة شعر أبيه متمم، ولاحظ أنه لما نفد شعر أبيه جعل يزيد في الأشعار ويصنعها، وإذا كلام دون كلام متمم، وإذا هو يحتذى على كلامه (٢) .

السبب الثاني : الرواة :

---

١ – ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ، ص ٣٩ وما بعدها .

٢ – نفسه : ص ٤٠ .

ويقدم لنا ابن سلام طائفتين من الرواة، كانتا ترويان منتحلا كثيرا وتنسبانه إلى الجاهليين :

الطائفة الأولى : كانت تحسن نظم الشعر وصوغه، وتضيف ما تنظمه وتصوغه إلى الجاهليين . فخلف الأحمر كان يقول الشعر، فيجيده، وربما نحله الشعراء المتقدمين . فلا يتميز من شعرهم لمشاكلة كلامه كلامهم (١) . وحماد الراوية كان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها، وكان غير موثوق به، كان ينحل شعر الرجل غيره ويزيد في الأشعار (٢) .

ويقرر ابن سلام أن ما زاده الرواة في الأشعار، أو وضعه المولدون، قد يسهل على أهل العلم معرفته، أما ما وضعه أهل البادية من أولاد الشعراء، أو من غير أولادهم، فإنه قد يشكل على أهل العلم بعض الإشكال (٣) .

الطائفة الثانية : لم تكن تحسن النظم، ولا الاحتذاء على أمثلة الشعر الجاهلي، وهم رواة الأخبار والسّير والقصص .

فهو يعدّ محمد بن اسحق " ممن هجّن الشعر وأفسده وحمل كل غثاء منه (٤) " . وذلك لأنه أورد في سيرته أشعارا لرجال لم يقولوا الشعر قط، ونساء لم يقلْن الشعر قط، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود .

وقد استدل ابن سلام على بطلان هذا النوع من الشعر بالأدلة التالية :

١- يقول ابن سلام : أفلا يرجع – ابن اسحق – إلى نفسه، فيقول :

---

١ – نفسه : ص ٥٨ .

٢ – طبقات فحول الشعراء : ص ٤٠ .

٣ – نفسه : ص ١٤ .

٤ – نفسه : ص ٤ .

من حمل هذا الشعر؟ ومن أداه منذ ألوف السنين، والله تبارك وتعالى يقول : " وإنه أهلك عادا الأولى وثمود فما أبقى " وقال في عاد : " فهل ترى لهم من باقية ؟ " . وقال : " وعادًا وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله (١) " .

٢- إن أول من تكلم بالعربية ونسي لسان أبيه إسماعيلُ بنُ إبراهيمَ، وإسماعيل كان بعد عاد . ثم إن مَعَدًّا وهو الجد الذي قبل الأخير من جدود العرب المعروفين كان بازاء موسى عليه السلام، أو قبله قليلا .ومعنى هذا أن اللغة العربية لم تكن موجودة في عهد عاد، وإذن فليس من المعقول أن يوجد شعر بلغة لم توجد بعد .

٣- ودليل آخر استمده من تاريخ الشعر العربي . ويتمثل ذلك في قوله :

" ولم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل في حادثة . وإنما قصدت القصائد، وطوّل الشعر على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف . وذلك يدل على إسقاط شعر عاد وثمود وحمير وتبع (٢) . ويقول : " وكان أول من قصد القصائد، وذكر الوقائع المهلهل بن ربيعة التغلبي في قتل أخيه كليب وائل(٣) وكذلك يقول : " كان امرؤ القيس بن حجر بعد مهلهل، ومهلهل خاله، وطرفة وعبيد، وعمرو بن قميئة، والمتلمس في عصر واحد (٤) " .

وإذا كان هؤلاء الشعراء الذين لا يبعد عهدهم كثيرا عن عهد الإسلام هم الذين قصدوا القصيد وأطالوه، فإن هذه الحقيقة التاريخية تنفي صحة كل قصيدة تعزى إلى عهد أقدم من عهدهم . وهو بهذا ينفي صحة الشعر الذي أورده ابن اسحق في سيرته وعزاه إلى عاد وثمود وحمير وتبع أو غيرهم .

---

١ - نفسه : ص ٤-٥ .

٢ - المرجع السابق : ص ١٠-١١ .

٣ - نفسه : ص ١٣ .

٤ - نفسه : ص ١٣-١٤ .

وقد لفتت هذه القضية، قضية انتحال الشعر الجاهلي، أنظارَ الباحثين المحدثين من المستشرقين والعرب، وبدأ النظر فيها تيودور نولدكه وتلاه آلورد، ولكن الذي أثار الضجة في هذه القضية، وسلك فيها طريقا غير قويم، المستشرق الإنجليزي د .س . مرجوليوث، إذ كتب مقالا مفصلا نشره في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية، سنة ١٩٢٥م، جعل عنوانه " أصول الشعر العربي (١) " ونراه يستهله بموقف القرآن الكريم من الشعر متحدثا عن بدء ظهوره ونشأته وآراء القدماء في ذلك، ثم ينتقل إلى الحديث عن حفظه، وينفي أن تكون الرواية الشفوية هي التي حفظته ... وانتهى إلى القول : لم تكن هناك وسيلة لحفظه سوى الكتابة، ثم يعود فينفي كتابته في الجاهلية، ليؤكد أنه نظم في مرحلة زمنية تالية للقرآن الكريم، ويقف بازاء الرواة المتهمين أمثال حماد وخلف الأحمر، ليزعم أن الوضع في هذا الشعر كان مستمرا . ويقول : إنه لا يمثل الجاهليين الوثنيين، ولا مَنْ تنصروا منهم، فأصحابه مسلمون، لا يعرفون التثليث المسيحي، ولا الآلهة المتعددة، وإنما يعرفون التوحيد والقصص القرآني وما في الإسلام من مثل الحساب ويوم القيامة وبعض صفات الله .

وينتقل إلى اللغة فيلاحظ أنها لغة ذات وحدة ظاهرة . وهي نفس لغة القرآن الكريم التي أشاعها في العرب .ويقول : ولو أن هذا الشعر صحيح لمثل لنا لهجات القبائل المتعددة في الجاهلية، كما مثل لنا الاختلاف بين لغة القبائل الشمالية العدنانية واللغة الحميرية في الجنوب .

وزعم أن النقوش المكتشفة للممالك الجاهلية المتحضرة، وخاصة اليمنية، لا تدل على وجود نشاط شعري فيها، فكيف أتيح لبدو غير متحضرين أن ينظموا هذا الشعر، بينما لم ينظمه مَنْ تحضروا من أهل هذه الممالك ؟ .

---

١ – قام د . ناصر الدين الأسد بتلخيص تلك المقالة في كتابه القيم " مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية " ص ٣٥٢ وما بعدها .

وقد تعرض له جماعة من المستشرقين نقضوا آراءه، وأبطلوا مزاعمه، منهم المستشرق شارلس جيمس ليال، وجورجيو ليفي دلافيدا " (١) .

أما العرب المعاصرون فقد كان مصطفى صادق الرافعي في كتابه " تاريخ آداب العرب " أول من شق طريق البحث في هذا الموضوع، لكنه لا يتجاوز في عرضه سرد ما لاحظه القدماء .

فلما أصبحت القضية بين يدي طه حسين، وضعها في حلّة قشيبة من أسلوبه الجميل، في كتاب ألفه عام ١٩٢٦، أي بعد عامين من قيام المستشرق مرجوليوث من نشر مقالته المذكورة .

طه حسين :

في سنة ١٩٢٦ أصدر طه حسين كتابه " في الشعر الجاهلي "، وأراد به أن يقلب المناهج التقليدية في دراسة الشعر الجاهلي، فبنى منهجه على مذهب بعض أساتذته من المستشرقين، ودعا إلى الشك في التراث، وأمعن في ذلك إمعانا حتى أثار ما أراده لمنهجه من ضجة، لعل أصدق دليل على عنفها أن صاحب الكتاب نفسه أعاد إصداره سنة ١٩٢٧م بعنوان " في الأدب الجاهلي " بعد أن تناوله بالحذف والإضافة تخفيفا لما كان من غلواء، وتجنبا لما كانت الضجة أن تؤدي إليه مما لم يكن في الحسبان .

١ – انظر : مصادر الشعر الجاهلي ، ص ٣٦٧ وما بعدها .

نتائج مفزعة :

انتهى طه حسين من بحثه إلى " أن الكثرة المطلقة مما نسميه أدبا جاهليا ليست من الجاهلية في شيء، وإنما هي منحولة بعد ظهور الإسلام، فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين (١) ". وأضاف : " إن هذا الشعر الذي ينسب إلى امرئ القيس، أو إلى الأعشى، أو إلى غيرهما من الشعراء الجاهليين لايمكن من الوجهة اللغوية والفنية أن يكون لهؤلاء الشعراء، ولا أن يكون قد قيل وأذيع قبل أن يظهر القرآن (٢) " . ثم اعتدل في رأيه فقسم الشعر الجاهلي ثلاثة أقسام، فقال : " إنا نرفض شعر اليمن في الجاهلية، ونكاد نرفض شعر ربيعة أيضا، وأقل ما توجبه علينا الأمانة العلمية أن نقف من الشعر المضري، لا نقول موقف الرفض أو الإنكار، وإنما نقول موقف الشك والاحتياط (٣) .

---

١ – في الأدب الجاهلي : ٧١-٧٢ .

٢ – نفسه : ٧٣ .

٣ – نفسه : ٢٧١ .

الدوافع التي دفعت طه حسين إلى الشك في الشعر الجاهلي :

أولا : إنه لا يمثل الحياة الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية للعرب الجاهليين(١). وقد فصّل القول تفصيلا في كل جانب، على هذا النحو الذي سنوضحه :

١- الحياة الدينية : زعم أن " هذا الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين يظهر لنا حياة غامضة جافة بريئة أو كالبريئة من الشعور الديني القوي والعاطفة الدينية المتسلطة على النفس والمسيطرة على الحياة العملية، وإلا فأين تجد شيئا من هذا في شعر امرئ القيس، أو طرفه، أو عنترة ؟ أو ليس عجيبا أن يعجز الشعر الجاهلي كله عن تصوير الحياة الدينية للجاهليين، وأما القرآن فيمثل لنا حياة دينية قوية تدعو أهلها إلى أن يجادلوا عنها ما وسعهم الجدال ... (٢) "

وواضح أن طه حسين في هذا يوافق مرجوليوث في الطعن في أصالة الأدب الجاهلي لخلوه من تصوير الحياة الدينية عند العرب قبل الإسلام .

أما أن القران الكريم نص ثابت، لا سبيل إلى الشك فيه، فذلك حق، ولا جدال فيه، وأما أن القرآن يصور حياة العرب الدينية قبل الإسلام، فذلك لا جدال فيه أيضا، لأن الناحية الدينية أهم النواحي التي جاء بها الإسلام لإصلاحها، وبيان الحق فيها، فكان من الطبيعي أن يبين وجه الفساد والخطأ في المعتقدات الدينية التي لا تنسجم مع هذه المبادئ، ولا تتفق مع العقل السليم، ومن ثم كان لا بد أن يفيض في محاربة عبادة الأوثان، ومجادلة أصحاب العقائد التي لا تتمشى مع مبادئه ومناهجه .

بيد أن مقارنة الشعر الجاهلي بالقرآن الكريم في هذه الناحية أمر ينبغي ألا يكون ؛ ذلك لأن الشعر ليس من أهدافه الوعظ والإرشاد، ولا الدخول في جدل

---

١ - المرجع السابق : ص ٦٤ .

٢ - نفسه

أيا كان نوعه . ولا يستبعد إطلاقا أن يكون هناك شعراء تغنوا بالعاطفة الدينية، وصوّروا أثر العقيدة في نفوسهم، بل من المرجح أيضا أن يكون منهم من تحدث عن الشعائر الدينية في شعره، غير أن قليلا أو كثيرا من هذا الشعر لم يصل إلينا لأسباب منها :

١- ضياع كثير من الشعر الجاهلي .

٢- إغضاؤهم عن رواية هذا الشعر، ورعا وتقوى، ولأن الإسلام، أيضا، قد نهى عن رواية مثل هذا الشعر.

٣- إن تأثير الدين في حياة الإنسان الجاهلي كان ضئيلا .

٤- انهيار الوثنية، في أواخر العصر الجاهلي، في نفوس أصحابها .

ومع هذا فإن ما وصل إلينا من شعر جاهلي فيه إشارات كثيرة إلى ما كانوا يؤمنون به من معتقدات، وإن رجوعا إلى كتاب الأصنام لابن الكلبي، واستقراء موسعا للشعر الجاهلي يدلان دلالة قاطعة على ما ذهبنا إليه (١) .

٢- الحياة السياسية : فهو يرى أن العرب " كانوا على اتصال بمن حولهم من الأمم، بل كانوا على اتصال قوي قسّمهم أحزابا وفرّقهم شيعا . أليس القرآن يحدثنا عن الروم وما كان بينهم وبين الفرس من حرب انقسمت فيها العرب إلى حزبين مختلفين: حزب يشايع أولئك، وحزب يناصر هؤلاء ؟ أليس في القرآن سورة تسمى " سورة الروم " ؟ لم يكن العرب إذن، كما يظن أصحاب هذا الشعر الجاهلي معتزلين . فأنت ترى أن القرآن يصف عنايتهم بسياسية الفرس والروم . وهو يصف اتصالهم الاقتصادي بغيرهم من الأمم في السورة المعروفة {

١ – راجع الأشعار التي أثبتناها في حديثنا عن الحياة الدينية ، ص ٩٥ .

لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف } . وكانت إحدى هاتين الرحلتين إلى الشام حيث الروم، والأخرى إلى اليمن حيث الحبشة والفرس (١) " .

والحق أن الأدب الجاهلي لا يصور العرب في الجاهلية منعزلين عما سواهم من الأمم، وبخاصة من كانوا يجاورونهم، كالروم والفرس والحبشة، من ذلك ما يقوله ابن سلام (٢) : " وكان أبو الصلت يمدح أهل فارس حين قتلوا الحبشة في كلمة قال فيها ...

ووردت في الشعر الجاهلي إشارات كثيرة للهند، وبخاصة عند الكلام على السيوف . وكان لصلات العرب الخارجية تأثير في لغتهم وأدبهم، وقد ظهر ذلك واضحا في كثير من الألفاظ الأجنبية التي عرّبها الجاهليون، وقد ورد بعضها في القرآن الكريم . فالشعر الجاهلي يدل دلالة قاطعة على صلة العرب الجاهليين بغيرهم من الأمم الأخرى، ولا يصورهم أمة منعزلة في صحرائها عما سواها من الأمم .

٣- الحياة الاقتصادية : وفي تصوير الحالة الاقتصادية بين العرب في الجاهلية يقارن بين القرآن الكريم والأدب الجاهلي فيقول (٣) : " وأنت إذا قرأت القرآن رأيت أنه يقسم العرب إلى فريقين آخرين : فريق الأغنياء المستأثرين بالثروة، المسرفين في الربا، وفريق الفقراء المعدمين، أو الذين ليس لهم من الثروة ما يمكنهم أن يقاوموا هؤلاء المرابين، أو يستغنوا عنهم، وقد وقف الإسلام في صراحة وحزم وقوة إلى جانب هؤلاء الفقراء المستضعفين، وناضل عنهم، وذاد خصومهم والمسرفين في ظلمهم ... أفتظن أن القرآن كان يعنى هذه العناية كلها بتحريم الربا والحث على الصدقة، وفرض الزكاة، لو لم تكن حياة العرب الاقتصادية الداخلية من الفساد والاضطراب بحيث تدعو إلى ذلك ؟ فالتمس لي

---

١ - المرجع السابق : ٧٤-٧٥ .

٢ - أنظر ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ، ص ٦٦-٦٧ .

٣ - المرجع السابق : ٨٤-٨٥ .

هذا أو شيئا كهذا في الأدب الجاهلي، وحدثني أين تجد في هذا الأدب شعره ونثره ما يصور لك نضالا ما بين الأغنياء والفقراء . ومع ذلك، فما هذا الأدب الذي لا يمثل فقر الفقير وما يحمل صاحبه من ضرّ، وما يعرضه له من أذى ؟ ...

ثم يتحدث عن ناحية أخرى فيقول : " كنا ننتظر أن يمثلها الشعر لأنها خليقة به، وتكاد تكون موقوفة عليه، نريد هذه الناحية النفسية الخالصة، هذه الناحية التي تظهر لنا الصلة بين العربي والمال ... فالشعر الجاهلي يمثل لنا العرب أجوادا كراما مهينين للأموال مسرفين في ازدرائها، ولكن في القرآن إلحاحا في ذم البخل وإلحاحا في ذم الطمع، فقد كان البخل والطمع إذن من آفات الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الجاهلية ... فالعرب في الجاهلية لم يكونوا كما يمثلهم هذا الشعر أجوادا متلفين للمال مهينين لكرامته، وإنما كان منهم الجواد والبخيل، وكان منهم المتلاف والحريص، وكان منهم من يزدري المال، ومنهم من يزدري الفضيلة والعاطفة في سبيل جمعه وتحصيله " .

والشعر الجاهلي ينسف ما ذهب إليه طه حسين نسفا، إذ أخطأ الأستاذ الكبير الدلالة الصحيحة للشعر الجاهلي على أحوال مجتمعه، وبنى رفضه له لا على الصورة الصحيحة التي يقدمها هذا الشعر إذا أُحسن فهمه، واستقصيت نصوصه، بل على الصورة الشائعة عنه، هذه الصورة المستمدة من قراءة تقتصر على شعر الأغنياء في مطولاتهم، ولا تحسن فهم هذا الشعر نفسه، ولا تعرف النصوص الغزيرة التي نظمها الشعراء المغمورون من البدو العاديين (١) .

وفي ظل غياب المؤسسات الرسمية التي تعنى بالأرامل والأيتام والفقراء والمستضعفين، ظهر عدد كبير من الشعراء الأرستقراطيين، الذين رأوا عليهم واجبا أخلاقيا تجاه هؤلاء المحرومين، فعملوا على مسح دموع هؤلاء وأولئك، ومدّوا لهم يد العون، ومن هؤلاء سيد من غطفان، وهو الحادرة، الذي رق قلبه

١ – د. محمد النويهي : الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه ، ١/ ٢٧٥.

لهؤلاء الجياع، وعجل طبخ الطعام لهم، فقال مصورا هذا الموقف الإنساني النبيل(١)

ومغرض تغلي المراجل تحته ... عجلت طبخته لرهط جوّع
ولدي أشعث باسط ليمينه ... قسما لقد أنضجت لم يتورع
.

ولبيد بن ربيعة في معلقته يصور حالة الجياع المضرورين والأرامل والأيتام الذين يؤويهم إلى أطنابه ويطعمهم ويكسوهم ويوقد النيران لتدفئتهم أيام البرد، استمع إلى هذا الصوت الإنساني وهو يشدو (٢):

فالضيف والجار الجنيب كأنما ... هبطا تبالة مخصبا أهضامها
تأوي إلى الأطناب كل رذية ... مثل البلية قالص أهدامها
ويكللون إذا الرياح تناوحت ... خلجا تمدُّ شوارعا أيتامها
.

١ – المفضليات : ٤٦ .

٢ – ديوان لبيد : تحقيق إحسان عباس ، ص ٣١٩ .

الأهضام : جمع هضم ، وهي بطون الأودية ذات النخيل والفواكهة ، الرذية : المهزولة ، عنى امرأة فقيرة . البلية : الناقة التي تشد عند قبر صاحبها لا تطعم ولا تسقى حتى تموت . قالص : مرتفع . أهدامها : خلقانها : أي تأوي إلى الخيمة الفقيرات والفقراء الذين يشهون البلية هزالا .

يكللون : ينضدون اللحم بعضه فوق بعض . تناوحت : واجه بعضها بعضا . خلجا : جفانا واسعة كالخلجان .

وها هو طرفة بن العبد البكري يفتخر بأنهم يقيمون الولائم الضخمة لجميع الجياع والمحرومين، ويدعوهم اليها، فيقول (١) :

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الآدب فينا ينتقر أقتار ذاك أم
حين قال الناس في مجلسهم ريح قطر من سديف حين هاج الصنّبر
بجفان تعتري نادينا لقرى الأضياف أو للمختصر .
كالجوابي لا تني مترعة .

وإذا لم يكن في الجزيرة العربية جوع وفقر، فلمن كانت تقام هذه الجفان، ولمن كانت تنصب هذه الموائد ؟

أليس من الطبيعي أن تقام تلك الموائد إلى أولئك المتضورين جوعا، على نحو ما يعرض علينا المزرّد بن ضرار الذبياني قصة صياد بائس، له أكلب هزيلة، وعيال جياع، ليس في بيته ما يسد رمقه، ويقيم أوده ... فأخذ يطوف في أصحابه يستجديهم فلم يظفر منه بشيء ... فعاد إلى بيته، وليس معه ما يضع في تلك الأفواه الجائعة، والمعد الفارغة ... لقد أضنى الجوع أبناءه، وأهزلهم ... فأخبر زوجه إن كان لديها شيء من طعام، إذ لم يجد في الناس خيرا . فقالت له : نعم هذا البئر... وهذا الجلد اليابس المحترق ... فسقط من شدة الإعياء، والقهر النفسي ... وجر على جسمه بقايا ثوبه يحاول أن ينام، وكيف ينام ؟ وقد قصّ

---

١ – ديوانه : ٨٤ .

المشتاه : زمن الشتاء ، وفيه يصبح الكرم عند البدوي له معناه ودلالته . الجفلى : الدعوة العامة إلى الطعام . ينتقر : يدعو النقرى ،وهي الدعوة الخاصة إليه . الآدب : الذي يدعو الناس إلى مأدبته . القتار : رائحة اللحم المشوي . القطر: خشب البخور . الجفان : جمع جفنة : وهي قصعة الطعام . الشديف : شرائح السنام . الصنبر : أشد البرد : الجوابي : جمع جابية ، وهي حوض كبير .

المزرد هذه الحادثة بأسلوب مؤثر، يجعلك تسمع أنّات ذلك الرجل، ويتمزق قلبك حزنا على أولئك الصبية الذين تسمع صيحاتهم، فقال: (١)

فعد قريض الشعر إن كنت ... فإن غزير الشعر ما شاء قائل
مغزرا لنعت صباحي طويل ... له رقميات وصفراء ذابل
شقاؤه بقين له مما يبري ... تقلقل في اعناقهن السلاسل
وأكلب سحام ومقلاء ... وجدلاء والسرحان والمتناول
القنيص وسلهب بنات ... فماتا فأودى شخصه فهو
سلوقيين كانا حياته ... خامل وقال له الشيطان
وأيقن إذ ماتا بجوع وخيبة ... إنك عائل فآب وقد
فطوف في أصحابه يستثيبهم ... أكدت عليه المسائل رواد
إلى صبية مثل المغالي وخرمل ... ومن شر النساء الخرامل
فقال لها : هل من طعام فإنني ... أذم إليك الناس أمك هابل
فقالت : نعم هذا الطويّ وماؤه ... ومحترق من حائل الجلد
فلما تناهت نفسه من طعامه ... قاحل وأمسى طليحا ما
تغشى يريد النوم فضل ردائه ... يعانيه باطل فأعيا على
. العين الرماد البلابل

---

١ - المفضليات : ١٠١-١٠٢

عد : اصرف وتجاوز . المغزر : الكثير . صباحي : رجل من بني صباح ، كان ضيفا له ، وكان صائدا . رقميات : سهام منسوبة إلى صانع ، أوبلد ، الصفراء : القوس . الذابل : التي قطع عودها وطرحت في الشمس . يبري : من بري السهام . سحام ومقلاء ... أسماء كلابه الستة . السلوقية : كلاب تنسب إلى سلوق ، قرية باليمن . يستثيبهم : يطلب ثوابهم . أكدت : امتنعت . المغالي : سهام لا نصال لها . يريد أن صبيانه في ضعفهم وسوء حالهم مثل هذه السهام . الخرمل : الحمقاء ، الرواد : الطوافة في بيوت جاراتها . هابل : من قولهم هبلته أي فقدته . الطوي : البئر . الحائل : الذي أتى عليه حول . الطليح : الضعيف . البلابل : هماهم صدره .

وتتردّد في أشعار الصعاليك صيحات الجوع والفقر والحرمان، ولم يكتفوا بالشكوى اللسانية، بل لجأوا إلى الثورة الدامية .

وقد جسد الشنفرى الأزدي حالة الجوع هذه، بخلق المعادل الموضوعي فيتخذ الذئاب بديلا عن ذاته، فقد غدا ذئبا جائعا، يعاني ما تعاني (١)

وأغدو على القوت الزهيد كما غدا ... أزل تهاداه التنائف أطحل
غدا طاويا يعارض الريح هافيا ... يخوت بأذناب الشعاب ويعسل
فلما لواه الجوع من حيث أمّه ... دعا فأجابته نظائر نحل
مهلهلة شيب الوجوه كأنها ... قداح بكفي ياسر تتقلقل
أو الخشرم المبعوث حثحث دبره ... محابيض أرداهن سام معسل
مهرته فوه كأن شدوقها ... شقوق العصي كالحات وبسل
فضبج وضجت بالبراح كأنها ... واياه نوح فوق علياء ثكل
وأغضى وأغضت واتسى واتست به ... مراميل عزاها وعزته مرمل

---

١ – لامية العرب ، ص ٥٨ وما بعدها .

الزهيد : القليل . الأزل : الخفيف الوركين . التنائف : جمع تنوفه ، وهي المفازة . الطاوي : الجائع . الهافي : المسرع . يخوت : ينقض. الشعاب : الطرقات الجبلية . لواه القوت : امتنع عليه . أمه : قصده . النظائر : الأشباه . نحل : ضعيفة لشدة الجوع . مهلهلة : ضعيفة . شيب الوجوه : مبيضة .قداح : سهام . الياسر : اللاعب بسهام الميسر . تتقلقل : تضطرب . الخشرم : رئيس النحل . حثحث : حض وطلب منه الاسراع . الدبر : جماعة النحل . المحاييض : جمع محيض وهي عيدان يتخذها مشتار العسل فيثير بها النحل . مهرته : مشقوقة الفم . كالحات : عابسات الوجوه . بسل : جمع باسل وهو الكريه . البراح : الأرض الواسعة . نوح : جمع نائحة . اتّسى : امتثل . مراميل : جمع مرمل وهو من لا زاد معه . بادرات : مسرعات . النكظ : شدة الجوع .

شكا وشكت ثم ارعوى بعد وارعوت وللصبر إن لم ينفع الشكو
وفاء وفاءت بادرات وكلها . أجمل على نكظ مما يكابد
مجمل .

٥- الحياة الاجتماعية :

ويقول :(١) " فهذا الشعر لا يعنى إلا بحياة الصحراء والبادية، وهو لا يعنى بها إلا من نواح لا تمثلها تمثيلا تاما . فإذا عرض لحياة المدر فهو يمسها مسا رفيقا ولا يتغلغل في أعماقها، وما هكذا نعرف شعر الإسلام . ومن عجيب الأمر أنا لا نكاد نجد في الشعر الجاهلي ذكر البحر أو الإشارة إليه، فإذا ذكر فذكر يدل على الجهل لا أكثر ولا أقل . أما القرآن الكريم فيمن على العرب بأن الله قد سخر لهم البحر وبأن لهم في هذا البحر منافع كثيرة ... "

يكب السفين لأذقانه ويصرع بالعبر أثلا وزارا
إذا رهب الموج نوتيه . يحط القلاع ويرخي الزيارا

ثانيا - اختلاف اللغة :

تحدث عن لغة الأدب الجاهلي، واتخذ منها سببا قويا للطعن في أصالته، وللقول إنه لا يمثل اللغة العربية في العصر الجاهلي مطلقا، فيقول : " إن الأدب الجاهلي لا يمثل اللغة الجاهلية (٢) " . ثم يقول : إن هناك خلافا جوهريا بين لغة حمير (وهي العرب العاربة) ولغة عدنان (وهي العرب المستعربة) . ويستند في ذلك إلى أمرين :

١ - في الأدب الجاهلي : ص ٨٧ .

٢ - المرجع نفسه : ص ٨٨ وما بعدها .

الأول : ما قاله أبوعمرو بن العلاء : ما لسان حمير بلساننا، ولا لغتهم بلغتنا .

والثاني : أن البحث الحديث أثبت خلافا جوهريا بين اللغة التي كان يصطنعها الناس في جنوب البلاد العربية، واللغة التي كانوا يصطنعونها في شمال هذه البلاد. ثم انتهى إلى القول :" فالقحطانية شيء، والعدنانية شيء آخر ... واذن فما خطب هؤلاء الشعراء الذين ينتسبون إلى قحطان، والذين كانت كثرتهم تنزل اليمن، وكانت قلّتهم من قبائل يقال انها قحطانية قد هاجرت إلى الشمال : ما خطب هؤلاء الشعراء وما خطب فريق من الكهان والخطباء يضاف إليهم نثر وسجع، وكلهم يتخذ لشعره ونثره اللغة العربية الفصحى، كما نراها في القرآن ؟ أما أن هؤلاء كانوا يتكلمون لغتنا العربية ففرض لا سبيل إلى الوقوف عنده فيما يتصل بالعصر الجاهلي، فقد ظهر أنهم كانوا يتكلمون لغة أخرى، أو قل لغات أخرى ".

وبعد ذلك يناقش القول إن اليمنيين قد اتخذوا لغة العدنانيين لغة أدبية لهم، ينشئون بها شعرهم ونثرهم الفنيين، فيقبل هذا القول على أنه " حق لا يحتمل شكا ولا جدالا بعد ظهور الإسلام، لأن اللغة العربية الفصحى، وهي لغة هذا الدين الجديد، ولغة الكتاب المقدس، ولغة حكومته الناشئة القوية، أصبحت لغة رسمية، ثم لغة أدبية للدول الإسلامية كلها " . أما قبل الإسلام، فلا يقبل هذا الرأي، بل يرفضه وينكره، معتمدا على " أن السيادة السياسية والاقتصادية – التي من شأنها أن تفرض اللغة على الشعوب – قد كانت للقحطانيين دون العدنانيين " .

ثم ينكر كذلك هجرة فريق من القحطانيين إلى شمال البلاد العربية واستقرارهم فيها، واتخاذهم لغة الشمال أداة للتخاطب والآثار الأدبية بحجة أن هذه الدعوى تقوم على أساسين، هما : النسب، وسيل مأرب، وهو لا يقبل هذين الأساسين إلا إذا قام الدليل العلمي على صحتها .

ثالثا – اختلاف اللهجات :

ويتحدث عن الشعر الجاهلي واللهجات الشمالية، فيحاول أن يتخذ من ذلك مطعنا جديدا في أصالة الأدب الجاهلي، وصدقه، فيقول (١) :" فالرواة مجمعون على أن قبائل عدنان لم تكن متحدة اللغة، ولا متفقة اللهجة قبل أن يظهر الإسلام، فيقارب بين اللغات المختلفة، ويزيل كثيرا من تباين اللهجات . وكان من المعقول أن تختلف لغات العرب العدنانية، وتتباين لهجاتهم قبل ظهور الإسلام ... فإذا صح هذا كله كان من المعقول جدا أن تكون لكل قبيلة من هذه القبائل العدنانية لغتها ولهجتها ومذهبها في الكلام، وأن يظهر اختلاف اللغات وتباين اللهجات في شعر هذه القبائل الذي قيل قبل أن يفرض القرآن على العرب لغة واحدة ولهجات متقاربة، ولكننا لا نرى شيئا من ذلك في الشعر الجاهلي، فأنت تستطيع أن تقرأ هذه المطولات أو المعلقات التي يتخذها أنصار القديم نموذجا للشعر الجاهلي الصحيح، فسترى ان فيها مطولة لامرئ القيس، وهو من كندة أي من قحطان، وأخرى لزهير، وأخرى لعنترة، وثالثة للبيد، وكلهم من قيس، ثم قصيدة لطرفة، وقصيدة لعمرو بن كلثوم، وقصيدة أخرى للحارث بن حلزة، وكلهم من ربيعة . تستطيع أن تقرأ هذه القصائد السبع دون أن تشعر فيها بشيء يشبه أن يكون اختلافا في اللهجة، أو تباعدا في اللغة، أو تباينا في مذهب الكلام : البحر العروضي هو هو، وقواعد القافية هي هي، والألفاظ مستعملة في معانيها كما تجدها عند شعراء المسلمين، والمذهب الشعري هو هو . كل شيء في هذه المطولات يدل على أن اختلاف القبائل لم يؤثر في شعر الشعراء تأثيرا ما . فنحن بين اثنتين : إما أن نؤمن بأنه لم يكن هناك اختلاف بين القبائل العربية من عدنان وقحطان، لا في اللغة، ولا في اللهجة، ولا في المذهب الكلامي، وأما أن نعترف بإن هذا الشعر لم يصدر عن هذه القبائل، وإنما حمل عليها بعد الإسلام حملا " . ثم ينتهي إلى القول: " ونحن إلى الثانية أميل منا إلى الأولى . فالبرهان القاطع قائم على أن اختلاف اللغة واللهجة كان حقيقة واقعة بالقياس إلى عدنان وقحطان " .

---

١ - المرجع السابق : ١٠٣ وما بعدها .

والحق أن طه حسين قد جانبه الصواب، لأن ما بين أيدينا من شعر جاهلي يدل دلالة قاطعة على أن القبائل العربية الشمالية قد اصطلحت فيما بينها على لهجة أدبية فصحى، كان الشعراء على اختلاف قبائلهم وتباعدها ينظمون فيها شعرهم(١)، وأن هذه اللغة، التي سنسميها " اللغة الموحدة "، قد انصهرت فيها اللهجات العربية، وتفاعلت في عملية تنقية وتهذيب، فما استجيد منها ضُمّ إلى الفصحى رصيدا لغويا. وما استقبح نفي عنها، وأبعد منها ليظل على حاله مستعملا في اللغة العادية، لغة الحياة اليومية . لأن هذه اللغة الموحدة هي التي تستوعب كل الاحتياجات على المستويات العليا، وتتسع لإلقاء الخطب في المؤتمرات، وصياغة الاتفاقيات، وإبرام المعاهدات، وإلقاء الشعر في الأسواق، وإن الذين يتعاملون بها هم صفوة من الناس، تميزوا من غيرهم بسعة الثقافة، ورقة الإحساس، ورفعة الذوق، فكان لا بد أن تكون لهم لغة خاصة تستعلي على لغة الحياة اليومية، وما فيها من لهجات، رأوا أنها معيبة وقبيحة، يجب الترفع باللغة النموذجية عنها . قال بروكلمان (٢) : "ولا شك أن لغة الشعر القديم هذه لا يمكن أن يكون الرواة والأدباء اخترعوها على أساس كثرة من اللهجات الدارجة، ولكن هذه اللغة لم تكد تكون لغة جارية في الاستعمال العام، بل كانت لغة فنية قائمة فوق اللهجات، وإن غذتها جميع اللهجات " .

وإذا قرأنا هذه الأشعار المشتركة اللغة، التي تذوب فيها الفوارق اللهجية وتنعدم خلالها الميزات القبلية، أدركنا كيف صحّ أن يكون كل من : امرئ القيس والنابغة، والأعشى، وزهير، وبشر بن أبي خازم ... جوابا عن : من أشعر الناس ؟ .

فلو كان كل شاعر من هؤلاء ينظم شعره بلغته الخاصة ولهجة قبيلته، فمن يكون الحكم، ولأي لهجة تعطى الأولوية، وفيم تتبارى الهمم، وتتنافس

---

١ – د . شوقي ضيف : العصر الجاهلي ،١٣١ .

٢ – بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ٤٢/١ .

القدرات، إذا لم تكن وحدة اللغة قاسما مشتركا حتى يمكن المقارنة والموازنة، وبالتالي المفاضلة . ولا أجد خيرا مما قاله إبراهيم أنيس (١) " كان لا بد لأولئك الشعراء الذين جاؤوا من بيئات متباينة أن ينظموا شعرهم بلغة خالية من عنعنة أو عجعجة أو كشكشة لينال إعجاب سامعيه، ولا يكون موضع سخريتهم وهزئهم، وإلا فكيف كان من الممكن أن يفضل شاعر على شاعر في تلك المناظرات إذا كان القياس مختلفا، وأداة القول متباينة " .

أسباب الانتحال

تحدث طه حسين عن أسباب نحل الشعر، فحصرها في السياسة، والدّين، والقصص، والشعوبية، والرواة .

أما السياسة، وأراد بها العصبية القبلية، فرآها تلعب دورا واضحا في شعر قريش والأنصار، إذ أضافت قريش إلى نفسها شعرا كثيرا، وقد استكثرت بنوع خاص من الشعر الذي يهجى به الأنصار، وانتهى إلى القول : "إن العصبية وما يتصل بها من المنافع السياسية قد كانت من أهم الأسباب التي حملت العرب على نحل الشعر للجاهليين " .

وينتقل إلى الدين فيبين دوره في هذا النحل متشككا في الأشعار التي يقال " إنها نظمت في الجاهلية إرهاصا ببعثة الرسول، مما رواه ابن اسحق، واحتفظ به ابن هشام في سيرته، ومثله ما يضاف إلى الجن والأمم القديمة البائدة .

ويتابع حديثه فيذكر أن من تأثير الدين في نحل الشعر ما كان يشعر بالحاجة إليه، علماءُ العرب في إثبات أن القرآن عربي مطابق في ألفاظه للغة العرب، " فحرصوا على أن يستشهدوا على أن كل كلمة من كلمات القرآن عربية

١ – د . إبراهيم أنيس : في اللهجات العربية ، ٣٩ – ٤٠ .

لا سبيل إلى الشك في عربيتها " . ويعقب على ذلك بأنه يعتقد أنه " إذا كان هناك نص عربي لا تقبل لغته شكا ولا ريبا وهو لذلك أوثق مصدر للغة العربية، فهو القرآن الكريم . وبنصوص القرآن وألفاظه يجب أن يستشهد على صحة ما يسمونه الشعر الجاهلي، بدل أن نستشهد بهذا الشعر على نصوص القرآن .

وتحدث عن القصص والقصاص وأثرهم في وضع الشعر، فقال : " وأنت تعلم أن القصص العربي لا قيمة له ولا خطر في نفس سامعيه، إذا لم يزينه الشعر... وإذن فقد كان القصاص أيام بني أمية وبني العباس في حاجة إلى مقادير لا حدّ لها من الشعر، يزينون بها قصصهم، ويدعمون بها مواقفهم المختلفة فيه . وهم قد وجدوا من هذا الشعر ما كانوا يشتهون وفوق ما يشتهون (١) " .

وعن الشعوبية وصلتها بنحل الشعر، تحدث طه حسين عن نشأة الشعوبية بعد دخول الموالي في الإسلام، وموقفهم من الأحزاب السياسية منذ قيام الدولة الأموية، واستغلالهم الخصومات السياسية التي كانت بين هذه الأحزاب ليعيشوا من جهة، وليخرجوا من الرق من جهة أخرى، ثم ليشفوا ما في صدورهم من غل، وينفسوا عن أنفسهم ما كانوا يضمرون من ضغينة للعرب من جهة ثالثة، وانتهى إلى أن الموالي أنطقوا العرب بكثير من نثر الكلام وشعره فيه مدح للفرس، وثناء عليهم، وتقرب منهم، وهم زعموا أن الأعشى زار كسرى ومدحه، وظفر بجوائزه، وهم أضافوا إلى عدي بن زيد ولقيط بن يعمر وغيرهما من إياد والعباد كثيرا من الشعر، فيه الإشادة بملوك الفرس وسلطانهم وجيوشهم (٢) ...

وفي الحديث عن الرواة ونحل الشعر، يقول : " ولعل أهم هذه المؤثرات التي عبثت بالأدب العربي، وجعلت حظه من الهزل عظيما : مجون الرواة

---

١ - المرجع السابق : ١٥١ .

٢ - المرجع السابق : ١٦٤ .

وإسرافهم في اللهو والعبث، وانصرافهم عن أصول الدين وقواعد الأخلاق إلى ما يأباه الدين وتنكره الأخلاق (١) " .

ولكنه لا يتحدث هنا إلا عن اثنين من الرواة، فيقول : " ولست أذكر هنا إلا اثنين إذا ذكرتهما فقد ذكرت الرواية كلها والرواة جميعا، فأما أحدهما فحماد الراوية، وأما الآخر فخلف الأحمر (٢) .

ثم يسوق جملة من الأقوال التي قيلت ضد كل منهما، وينتقل إلى الحديث عن أبي عمرو الشيباني، فيقول :" وأكبر الظن أنه كان يؤجر نفسه للقبائل، يجمع لكل واحدة منها شعرا، يضيفه إلى شعرائها (٣) " . وانتهى إلى القول : " وإذا فسدت مروءة الرواة، كما فسدت مروءة حماد وخلف وأبي عمرو الشيباني ... كان من الحق علينا ألا نقبل مطمئنين ما ينقلون إلينا من شعر القدماء " .

وبعد أن انتهى من رواة الأمصار التفت إلى رواة الأعراب، فرماهم بأنهم كانوا يتخذون النحل في الشعر واللغة وسيلة من وسائل الكسب، وقال عنهم: "فليس من شك عند مَنْ يعرف أخلاق الأعراب في أن هؤلاء الناس حين رأوا إلحاح أهل الأمصار عليهم في طلب الشعر والغريب وعنايتهم بما كانوا يلقون إليهم منها، قدروا بضاعتهم واستكثروا منها، ... وأخذ هؤلاء الأعراب يكذبون، وأسرفوا في الكذب، حتى أحس الرواة أنفسهم ذلك (٤) .

إنكار التزييف :

على أن العقاد، إنما ينكر التزييف تماما، ويرى أنه ما من قارئ للأدب يسيغ القول بوجود طائفة من الرواة، يلفقون أشعار الجاهلية، كما وصلت

---

١ -المرجع السابق : ١٦٨ .

٢ - المرجع السابق : ١٦٩ .

٣ -المرجع السابق : ١٧١ .

٤ - المرجع السابق : ص ١٧٢ .

إلينا، ويفلحون في ذلك التلفيق، إذ معنى ذلك (أولا) أن هؤلاء الرواة قد بلغوا من الشاعرية ذروتها التي بلغها امرؤ القيس، والنابغة، وطرفة، وعنترة، وزهير، وغيرهم من فحول الشعر في الجاهلية، ومعنى ذلك (ثانيا) أنهم مقتدرون على توزيع الأساليب حسب الأمزجة والأعمار، والملكات الأدبية، فينظمون بمزاج الشاب طرفة، ومزاج الشيخ زهير، ومزاج العربيد الغزل امرئ القيس، ومزاج الفارس المقدام عنترة، ويتحرون لكل واحد مناسباته النفيسة، والتاريخية . ويجمعون له القصائد على نمط واحد في الديوان الذي ينسب إليه، ومعنى ذلك (ثالثا) أن هذه القدرة توجد عند الرواة، ولا توجد عند أحد الشعراء، ثم يفرط الرواة في سمعتها، وهم على هذا العلم بقيمة الشعر الأصيل، وما من ناقد يسيغ هذا الفرض ببرهان، فضلا عن إساغته بغير برهان، ولغير سبب إلا أن يتوهم ويعزز التوهم بالتخمين (١) .

١ - عباس العقاد : مطلع النور ، ص ٤٨-٤٩ .

المعلقات

لقد ورد أنَّ العرب قد علقوا بعض قصائدهم بين أستار الكعبة، وقد أذاع هذا الخبر ابن عبد ربه، حيث يقول « كان الشعر ديوان العرب خاصة، والمنظوم من كلامها، والمقيد لأيامها، والشاهد على أحكامها، حتى لقد بلغ من كلف العرب به وتفضيله له أنْ عمدت إلى سبع قصائد تخيرت من الشعر القديم . فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة، وعلقتها بين أستار الكعبة، فمنه يقال مذهبة امرئ القيس، ومذهبة زهير» وهى سبع قصائد، اضافة إلى معلقتي امرئ القيس وزهير بن أبى سلمى . يذكر ابن عبد ربه : معلقة طرفة بن العبد، وعنترة بن شداد، وعمرو بن كلثوم، ولبيد بن ربيعة والحارث بن حلزة اليشكرى .

وقد أكد ابن خلدون خبر تعليق المعلقات بأركان البيت الحرام مشيراً إلى أنه « كان يتوصل إلى تعليق الشعر من كان له قدرة على ذلك بقومه وعصبيته ومكانه من مضر»، وذكر أصحاب المعلقات: امرأ القيس، والنابغة الذبيانى، وعنترة بن شداد وطرفة بن العبد، وعلقمة بن عبدة، والأعشى، وقال ابن رشيق القيروانى« وكانت المعلقات تسمى المذهبات، وذلك لأنها اختيرت من سائر الشعر فكتبت في القباطي بماء الذهب وعلقت على الكعبة »

ويقول البغدادى « إنَّ العرب كانت فى الجاهلية يقول الرجل منهم الشعر في أقصى الأرض فلا يعبأ به، ولا ينشده أحد حتى يأتي مكة في موسم الحج، فيعرضه على أندية قريش، فإنْ استحسنوه روي وكان فخرا لقائله، وعُلق على ركن من أركان الكعبة حتى ينظر إليه، وإن لم يستحسنوه طرح ولم يعبأ به، وأول من علق شعره في الكعبة : امرؤ القيس، وبعده علقت الشعراء وعدد من علق شعره سبعة: ثانيهم طرفة بن العبد، ثالثهم زهير، رابعهم لبيد بن ربيعة، خامسهم عنترة، سادسهم الحارث بن حلزة، سابعهم عمرو بن كلثوم، هذا هو المشهور » .

وإذا كان القدامى قد ورد عنهم خبر تعليق بعض القصائد على أستار الكعبة فإنَّ هناك من القدامى وهو ابن النحاس، وهو عالم معاصر لابن عبد ربه، ينفى

أنْ تكون المعلقات قد علقت على أستار الكعبة، بل يؤكد أنَّ حمّاداً هو الذي جمعها، ويقول ابن النحاس «وأما قول من قال إنها علقت في الكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة وأصح ما قيل في هذا : إنَّ حماداً الراوية لما رأى زهد الناس في حفظ الشعر جمع هذه السبع وحضهم عليها، وقال لهم هذه المشهورات فسميت القصائد المشهورة لهذا . »

وقد توقف المستشرقون عند تعليق المعلقات على أستار الكعبة، إذ يرى « نولدكه » أنَّ المؤرخين العرب قد استعملوا كلمة علق بمعنى عقد أي سمط عنوانا لكتبهم، وهذا ما جرى للمعلقات التي سميت بالسموط ، ويرجح ليال « أنَّ المعلقات مشتقة من العلق، وهو ما يضن به من الأشياء والحلي والثياب »، ويعتقد فون كريمر «أنها مشتقة من علق، أي كتب، لأنَّ هذه القصائد ظلت تنتقل عن طريق الرواية الشفوية ثم انتهى بها الأمر إلى التدوين، وهو تعليل يرد عليه أنَّ استعمال الفعل علق بمعنى «دوّن» متأخر وكان مقصوراً في استعمال العصور الوسطى على أوساط النساخ .»

ويذهب من العرب المعاصرين الدكتور شوقي ضيف إلى تأكيد نفي أسطورة تعليق المعلقات في الكعبة، وهو بهذا يتابع آراء المستشرق ليال في تصوره هذا، ويؤكد لو أنَّ الباحثين تنبهوا إلى المعنى المراد بكلمة المعلقات ما لجأوا إلى هذا الخيال البعيد، ومعناها المقلدات والمسمطات، وكانوا يسمون قصائدهم الطويلة الجيدة بهذين الاسمين وما يشبههما» ويؤكد في مكان آخر أنَّ هذه القصائد « لم تعلق بالكعبة كما زعم بعض المتأخرين، وإنما سميت بذلك لنفاستها أخذاً من كلمة العلق بمعنى النفيس » .

ويظن الزبيدي « أنَّ فكرة التعليق هذه نشأت عن تفسير كلمة « السموط » التي عرفت لها عند بعض الرواة الأوائل، وتعني « القلائد المعلقة » أو « المعلقات » إطلاقا وقد نسي بمرور الزمن معنى الكلمة الأصلي، وأصبحت كلمة « المعلقات » هي اللفظ الشائع، فدعا ذلك القصاص إلى ابتداع فكرة تعليقها على الكعبة في محاولة لتفسير اللفظ الجديد، فصادف ذلك قبولاً بين عامة الناس أو

أوساطهم، أما ناصر الدين الأسد فقد بقي متردداً بين النفي والإثبات ولذلك فهو يقول إننا « لا نملك وسيلة قاطعة للإثبات أو النفي، ولا نحب أن نعتسف الطريق ونقتحم كما يقتحم غيرنا وكل ما نستطيع أنْ نقوله إنَّ الاعتراض الذي قدمه القدماء كاعتراض ابن النحاس، والذي قدمه المحدثون لا يثبت ـــ في رأينا ـــ للتحقيق والتمحيص، فإذا ما استطعنا أن ننفي هذا الاعتراض بقي القول الأول بكتابة المعلقات وتعليقها ـ سواء في الكعبة أو خزانة الملك أو السيد ـ قولاً قائماً ترجيحاً لا يقيناً. إلى أنْ يتاح له اعتراض جديد ينفيه، أو سند جديد يؤيده ويثبته. »

ويرى الطاهر مكي « أنَّ هذه القصائد المختارة قد أخذت أكثر من اسم حسب العصور أو الشراح، فهي « المعلقات » أو «القصائد السبع » أو « السبع الطوال الجاهليات » أو « القصائد العشر» ومن بين كل هذه المسميات فإنَّ اسم « المعلقات » هو الذي أثار كثيراً من الجدل والخلاف وصيغت حوله قصة لا تزال موضع الشك بين العلماء والباحثين. »

ونخلص من هذا كله أنَّ هناك جدلاً حول تسمية المعلقات وخبر تعليقها، وأميل إلى أنَّ هذه القصائد لم تعلق على أستار الكعبة، لأن خبر تعليقها قد ورد أول مرة عند ابن عبد ربه الأندلسي، ومن ثم تردد أكثر لدى باحثين مغاربة مثل ابن رشيق وابن خلدون ولذلك ألفينا من يعد كتابة القصائد بماء الذهب إنما هي تفاويه أندلسية «اخترعوها لتفسير تسمية غامضة لا يعرفونها » بدل أن يقولوا « الله أعلم» وكان الأندلسيون بحكم موقع بلادهم، في بعدها عن الشرق، وطبيعتها، وتعدد مناخها، وتنوع جوائحها من سيول وأمطار، ورعود وفيضان، يميلون إلى الغرائب والعجائب، ويؤخذون بها، ويبالغون في روايتها، حتى لو تجاوزت الممكن وتجافت الواقع . »

ومن الجدير بالذكر أنَّ عالماً معاصراً لابن عبد ربه وهو ابن النحاس قد نفى أمر تعليقها على أستار الكعبة « ولعل أهم ما يقدح في خبر تعليق هذه القصائد على جدران الكعبة خلو مصادر القرون الأربعة الأولى بعد الإسلام منه وظهوره

متأخرا في المصادر التالية، هذا فضلا عن خلو أخبار فتح مكة من أخبار هذه القصائد، إذ لو كانت معلقة على جدران الكعبة ابان الفتح لورد ذكرها » ويضاف لهذا أنّ « اختلاف رواة الشعر في ضبط أبيات تلك المعلقات، دليل في حد ذاته على عدم صحة التعليق، إذ لو كانت تلك القصائد معلقة ومشهورة، وكانت مكتوبة لما وقع علماء الشعر في هذا الاختلاف » يضاف إلى ذلك أنَّ بعض هذه القصائد ـ وبخاصة قصيدة امرئ القيس ـ كانت تشتمل على فاحش الكلام، مما لا يليق بالعرب أن يعلقوا هذه القصيدة في مكان يقدسونه ويحجون إليه . كما أنه من المؤكد أنَّ حماداً الراوية هو أول من جمعها، فكيف يصح أن تكون معلقة على أستار الكعبة، وقد عمد حماد إلى جمعها وإذاعتها بين الناس .

إنَّ ما سبق ذكره لا يعني أنَّ العرب لم يدونوا إطلاقا بعض أبيات شعرائهم، لكن هذه الطريقة لم تكن المثلى في انتقال الشعر الجاهلي، وذلك لعدة أسباب :

- صعوبة استخدام أدوات الكتابة، إذ كان العرب يستخدمون الجلود والعظام وجريد النخل .

- إنَّ القرآن الكريم، وهو كتاب المسلمين المقدس، لم يجمع في مصحف واحد إلا بعد وفاة الرسول صلّى الله عليه وآله، كما أنَّ الحديث النبوي بقي معتمداً في أغلبه على الرواية إلى مرحلة لاحقة .

- ليس هناك أي دليل مادي قاطع يؤكد أنَّ العرب قد كتبوا قصائدهم، وانتقلت إلى الأجيال اللاحقة، وأنَّ « ما يذكر من أخبار عن كتابة بعض شعرائهم لمقطوعات لهم ان صح، فانه لا يدل على أنهم فكروا فعلاً في تدوين أشعارهم إنما هي قطع تكتب على رحل أو حجر أو جلد لأبناء القبيلة أو بعض أفرادها بحادث .»

ومثل هذا ما يذهب إليه بلاشير على الرغم من أنه يؤكد « أنَّ بعض الرواة في بعض المراكز الحضرية قد دونوا كتابة بعض القصائد الجاهلية، ولكن ذلك

يعوزه الدليل حتى لو سلمنا بصحة وقوع ذلك فإن التدوين لم يشمل إلا جزءاً من آثار الشعراء الحضريين أما البقية فقد سارت في الصحراء عن طريق الرواية الشفوية . وخلاصة القول فإنَّ الرواية الشفوية وحدها تؤلف الطريقة الأساسية لنشر « الآثار الشعرية» منذ اللحظة التي قذف فيها الشاعر وراويته تلك الآثار في خضم الجماهير .»

ويذهب عبد المنعم الزبيدي إلى أنَّ « ما يؤكد أنَّ نظم الشعر وروايته قبل الإسلام كانا قد قاما على المشافهة دون الكتابة هو أنَّ الخطوط التي عرفها العرب آنذاك لم تكن تصلح لتدوين الشعر، وبخاصة تدوين القصائد الطوال منه . فالخط النبطي الشمالي المشتق من الآرامي ... يخلو من الإعجام أو النقط.. ومن رسم الأحرف الصائتة القصيرة المعروفة بالحركات ...ومن علامة التنوين ... إنَّ هذه النواقص الخطيرة في الخط العربي أو النبطي المتأخر ...كان لابد لها أنْ تحول بين هذا الخط واستعماله في تدوين القصائد الجاهلية ... ومن العسير جداً قراءة قصيدة طويلة قد دونت بهذا الخط وفهمها على النحو الذي أراده صاحبها أو على نحو قريب له » .

من معلقة امرئ القيس

هذه المعلقة هي من أغنى الشعر الجاهلي و قد أولاها الأقدمون عناية بالغة ، و جعلها رواة المعلقات فاتحة كتبهم ، كما جعلها رواة الديوان القصيدة الأولى فيه ، و عني بها الدارسون المحدثون من عرب و مستشرقين ، فترجموها إلى عدة لغات أجنبية . و أما الشاعر امرؤ القيس فهو امرؤ القيس حُجْر بن الحارث من قبيلة كندة من قحطان ، ولد بنجد ، كان أبوه ملكاً من سلالة ملوك ، و ابن عمته عمرو بن هند ملك الحيرة ،وأمه فاطمة أخت مهلهل و كليب من سادة تغلب . ما كاد الشاعر يشب و يصلب عوده حتى انطلق لسانه بالشعر متأثراً بخاله مهلهل ، و كان يهوى التشبيب في شعره ، حتى قيل إنه شبّب بزوجة أبيه ، فما كان من أبيه إلا أن نهاه عن النسيب ثم طرده من كنفه حين لم ينته عن قول الشعر البذيْ ، فلحق الشاعر بعمه شرحبيل ، و إذا بابنة عمه فاطمة المعروفة بعنيزة ، تمد شاعريته و تخصبها حتى تكون المعلقة إحدى ثمار هذا المد . و قد كان حجر والد الشاعر ملكاً على بني أسد و غطفان و قد نقم أهلها عليه فقتلوه و أوصى رجلاً أن يخبر أولاده بمقتله ، و قد بلغ الخبر امرأ القيس و أقسم أن يثأر لأبيه ممن قتلوه . بلغ شعر امرىء القيس الذي وصل إلينا زهاء ألف بيت منجمة في مائة قطعة بين طويلة و قصيرة نجدها في ديوانه ، و من يستعرض هذا الديوان يجد فيه موضوعات كثيرة أبرزها الغزل ، و وصف الطبيعة و الظعائن ، ثم الشكوى و المدح والهجاء و الرثاء إلى جانب الفخر و الطرد. منزلته الشعرية : أجمع الأقدمون على أن امرأ القيس واحد من شعراء الطبقة الأولى في العصر الجاهلي و هم زهير و النابغة و الأعشى و امرؤ القيس و قد شهد له بالسبق نقاد و رواة و شعراء و بلغاء ، لأن خصائصه الفنية جعلته يفوق سواه . و أخيراً توفي امرؤ القيس في الطريق قريباً من أنقرة بقروح تشبه الجدري. والآن نص المعلقة مع الشرح :

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

الشرح : خاطب الشاعر صاحبيه ، وقيل بل خاطب واحدا وأخرج الكلام مخرج الخطاب لاثنين ، لان العرب من عادتهم إجراء خطاب الاثنين على الواحد والجمع ، فمن ذلك قول الشاعر: فإن تزجراني يا ابن عفان أنزجر، وأن ترعياني أحمِ

عِرضاً ممنّعاً خاطب الواحد خطاب الاثنين ، وإنما فعلت العرب ذلك لان أدنى أعوان الرجل هم اثنان : راعي إبله وراعي غنمه ، وكذلك الرفقة أدنى ما تكون ثلاثة ، فجرى خطاب الاثنين على الواحد لمرور ألسنتهم عليه ، ويجوز أن يكون المراد به : قف قف ، فإلحاق الألف إشارة الى أن المراد تكرير اللفظ كما قال أبو عثمات المازني في قوله تعالى : "قال رب أرجعون " المراد منه أرجعني أرجعني ، جعلت الواو علما مشعرا بأن المعنى تكرير اللفظ مرارا ، وقيل : أراد قفن على جهة التأكيد ، فقلب النون ألفا في حال الوصل ، لأن هذه النون تقلب ألفا في حال الوقف ، فحمل الوصل على الوقف ، ألا ترى أنك لو وقفت على قوله تعالى : "لنسفعن" قلت : لنسفعا . ومنه قول الأعشى: وصلِّ على حين العشيّات والضحى ولا تحمد المثرين واللهَ فاحمدا = أراد فاحمدَن ، فقلب نون التأكيد ألفا ، يقال بكى يبكي بكاء وبكى ، ممدودا ومقصورا ، أنشد ابن الأنباري لحسان بن ثابت شاهدا له: بكت عيني وحق لها بكاها = وما يغني البكاء ولا العويل ... فجمع بين اللغتين ، السقط : منقطع الرمل حيث يستدق من طرفه ، والسقط أيضا ما يتطاير من النار ، والسقط أيضا المولود لغير تمام ، وفيه ثلاث لغات : سَقط وسِقط وسُقط في هذه المعاني الثلاثة ، اللوى:رمل يعود ويلتوي ، الدخول وحومل: موضعان . يقول : قفا وأسعداني وأعيناني ، أو : قف وأسعدني على البكاء عند تذكري حبيباً فارقته ومنزلا خرجت منه ، وذلك المنزل أو ذلك الحبيب أو ذلك بمنقطع الرمل المعوج بين هذين الموضعين.

فَتُوضِحَ فَٱلْمِقْرَاةِ لَمْ يَعْفُ رَسْمُهَا لِمَا نَسَجَتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشَمْأَلِ

الشرح : توضح والمقراة موضعان ، وسقط بين هذه المواضع الأربعة ، لم يعف رسمها ، أي لم ينمح أثرها ، الرسم: ما لصق بالأرض من آثار الدار مثل البقر و الرماد وغيرهما ، والجمع أرسم ورسوم ، وشمال ، فيها ست لغات : شمال وشمال وشأمل وشمول وشَمْل و شَمَل ، نسج الريحين: اختلافهما عليها وستر إحداهما إياها بالتراب وكشف الأخرى التراب عنها . وقيل : بل معناه لم يقتصر سبب محوها على نسج الريحين بل كان له أسباب منها هذا السبب ، ومر السنين ، وترادف الامطار وغيرها . وقيل : بل معناه لم يعف رسم حبها في قلبي وإن

نسجتها الريحان . والمعنيان الاولان أظهر من الثالث ، وقد ذكرها كلها ابن الانبارى .

تَرى بَعَرَ الآرْآمِ فِي عَرَصَاتِها وقِيعانِها كَأَنَّهُ حَبُّ فُلْفُلِ

الشرح : الآرآم :الظباء البيض الخالصة البياض ، وأحداهما رئم ، بالكسر ، وهي تسكن الرمل ، عرصات (في المصباح) عرصة الدار : ساحتها ، وهي البقعة الواسعة التي ليس فيها بناء ، والجمع عراص مثل كلبة الكلاب ، وعرصات مثل سجدة وسجدات ،وعن الثعالبي : كل بقعة ليس فيها بناء فهي عرصة ، و(في التهذيب) : سميت ساحة الدار عرصة لأن الصبيان يعرصون فيها أي يلعبون ويمرحون ؛ قيعان : جمع قاع وهو المستوي من الأرض ، وقيعة مثل القاع ، وبعضهم يقول هو جمع ، وقاعة الدار : ساحتها ، الفلفل قال في القاموس : كهدهد وزبرج ، حب هندي . ونسب الصاغاني الكسر للعامة : و(في المصباح) ، الفلفل: بضم الفاءين ، من الأبرار ، قالوا : لايجوز فيه الكسر . يقول الشاعر : انظر بعينيك تر ديار الحبيبة التي كانت مأهولة بأهلها مأنوسة بهم خصبة الأرض كيف غادرها أهلها وأقفرت من بعدهم أرضها وسكنت رملها الظباء ونثرت في ساحتها بعرها حتى تراه كأنه حب الفلفل . في مستوى رحباتها.

كَأَنِّي غَدَاةَ الْبَيْنِ يَوْمَ تَحَمَّلُوا لَدَى سَمُرَاتِ الْحَيِّ نَاقِف حَنْظَلِ

الشرح : غداة) :في المصباح) ، الغداة : الضحوة ، وهي مؤنثة ، قال ابن الأنباري . ولم يسمع تذكيرها ، ولو حملها حامل على معنى أول النهار جاز له التذكير ، والجمع غدوات ، البين : الفرقة ، وهو المراد هنا ، وفي القاموس : البين يكون فرقة ووصلا ، قال الشارح : بأن يبين بينا وبينونة ، وهو من الأضداد ، اليوم : معروف ، مقدارة من طلوع الشمس إلى غروبها ، وقد يراد باليوم والوقت مطلقا ، ومنه الحديث : "تلك أيام الهرج" أي وقته ، ولا يختص بالنهار دون الليل ، تحملوا واحتملوا : بمعنى : ارتحلوا ، لدي : بمعنى عند ، سمرات ، بضم الميم : من شجر الطلح ، الحي: القبيلة من الأعراب ، والجمع أحياء ، نقف الحنظل : شقة عن الهبيد ، وهو الحب ، كالإنقاف والانتفاف ، وهو ، أي الحنظل، نقيف ومنقوف،وناقفة وهوالذي يشقه.والشاعر يقول : كأني عند سمرات الحي يوم

رحيلهم ناقف حنظل،يريد:وقفت بعد رحيلهم في حيرة وقفة جاني الحنظلة ينقفها بظفره ليستخرج منها حبها.

وُقُوفاً بِهَا صَحْبي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ يقُولُونَ: لا تَهلِكْ أَسىً وَتَجَمَّلِ

الشرح : نصب وقوفا على الحال ، يريد ، قفا نبك في حال وقف أصحابي مطيتهم علي ، والوقوف جمع واقف بمنزلة الشهود والركوع في جمع شاهد وراكع ، الصحب : جمع صاحب ، ويجمع الصاحب على الأصحاب والصحب والصحاب والصحابة والصحبة والصحبان ، ثم يجمع الأصحاب على الأصاحيب أيضا ، ثم يخفف فيقال الأصاحب ، المطي : المراكب ، واحدتها مطية ، وتجمع المطية على المطايا والمطي والمطيات ، سميت مطية لأنه يركب مطاها أي ظهرها ، وقيل : بل هي مشتقة من المطو وهو المد في السير ، يقال:مطاه يمطوه ، فسميت الرواحل به لانها تمد في السير،نصب الشاعر أسى على أنها مفعول له. يقول : لقد وقفوا علي،أي لاجلي أو على رأسي وأنا قاعد،رواحلهم ومراكبهم،يقول لي : لا تهلك من فرط الحزن وشدة الجزع وتجمل بالصبر . وتلخيص المعنى : انهم وقفوا عليه رواحلهم يأمرونه بالصبر وينهونه عن الجزع.

وإِنَّ شِفَائِي عَبْرَةٌ مُهْرَاقَةٌ فَهَلْ عِنْدَ رَسْمٍ دَارِسٍ مِنْ مُعَوَّلِ

الشرح : المهراق والمراق: المصبوب ، وقد أرقت الماء وهرقته وأهرقته أي صببته ، المعول : المبكى ، وقد أعول الرجل وعول إذا بكى رافعا صوته به ، والمعول : المعتمد والمتكل عليه أيضا ، العبرة : الدمع ، وجمعها عبرات ، وحكى ثعلب في جمعها العبر مثل بدرة وبدر. يقول : وإن برئي من دائي ومما أصابنى وتخلصي مما دهمني يكون بدمع أصبه ، ثم قال : وهل من معتمد ومفزع عند رسم قدر درس ، أو هل موضع بكاء عند رسم دارس ؟ وهذا استفهام يتضمن معنى الإنكار ، والمعنى عند التحقيق : ولا طائل في البكاء في هذا الموضع ، لأنه لا يرد حبيبا ولا يجدى على صاحبه خيراً، أو لا أحد يعول عليه ويفزع إليه في هذا الموضع . وتلخيص المعنى : وإن مخلصي مما بي هو بكائي . ثم قال : ولا ينفع البكاء عند رسم دارس .

كَدَأْبِكَ مِنْ أُمِّ الْحَوْ يرِثِ قَبْلَهَا وَجَارَتِهَا أُمِّ الرِّبابِ بِمَأْسَلِ

الشرح : الدأب والدأب ، بتسكين الهمزة وفتحها : العادة ، وأصلها متابعة العمل والجد في السعي ، يقال : دأب يدأب دأبا ودئابا ودؤوبا ، وأدأبت السير : تابعته ،

مأسل ، بفتح السين: جبل بعينه ، ومأسل ، بكسر السين : ماء بعينه ، والرواية فتح السين. يقول عادتك في حب هذه كعادتك من تينك ، أي قلة حظك من وصال هذه ومعاناتك الوجد بها كقلة حظك من وصالها ومعاناتك الوجد بهما ، قبلها أي قبل هذه التي شغفت بها الآن.

إِذَا قَامَتا تَضَوَّعَ المِسْكُ مِنْهُمَا نَسِيمَ الْصِّبَا جَاءَتْ بِرَيَّا الْقَرَنْفُلِ

الشرح : ضاع الطيب وتضوع ؛ انتشرت رائحته ، الريا : الرائحة الطيبة. يقول : إذا قامت أم الحويرث وأم الرباب فاحب ريح المسك منهما كنسيم الصبا إذا جاءت بعرف القرنفل ونشره . شبه طيب رياهما بطيب نسيم هب على قرنفل وأتى برياه ، ثم لما وصفهما بالجمال وطيب النشر وصف حاله بعد بعدهما.

فَفَاضَتْ دُمُوعُ الْعَيْنِ مِنِّي صَبَابَةً عَلى الْنَّحْرِ حَتَّى بَلَّ دَمْعِي محْمَلِي

الشرح : الصبابة ، رقة الشوق ،وقد صب الرجل يصب صبابة فهو صب ، والأصل صبب فسكنت العين وأدغمت في اللام ، والمحمل : حمالة السيف، والجمع المحامل ،والحمائل جمع الحمالة . يقول : فسالت دموع عيني من فرط وجدي بهما وشدة حنيني إليهما حتى بل دمعي حمالة سيفي . نصب صبابة على أنه مفعول له كقولك : زرتك طمعا في برك ، قال الله تعالى : " من الصواعق حذر الموت " ، أي لحذر الموت ، وكذلك زرتك للطمع في برك ، وفاضت دموع العين مني للصبابة .

أَلا رُبَّ يَوْمٍ لَكَ مِنْهُنَّ صَالِحٍ وَلا سِيمَّا يَوْمٍ بِدَارَةِ جُلْجُلِ

الشرح : في رب لغات : وهي ، رُبْ ورُبَ ورُبُ ورَبَ ، ثم تلحق التاء فتقول : ربة وربت ، ورب : موضوع في كلام العرب للتقليل ، وكم : موضوع للتكثير ، ثم ربما حملت رب على كم في المعني فيراد بها التكثير ، وربما حملت كم على رب في المعني فيراد بها التقليل . ويروى ؛ ألا رب "يوم" كان منهن صالح ، والسي : المثل ، يقال : هما سيان أم مثلان . ويجوز في يوم الرفع والجر ، فمن رفع جعل ما موصولة بمعني الذي،والتقدير: ولا سيّ اليوم الذي هو بدارة جلجل ، ومن خفض جعل ما زائدة وخفضه بإضافة سي إليه فكأنه قال : ولا سي يومأي ولا مثل يوم دارة جلجل،وهو غدير بعينه . يقول : رب يوم فزت فيه بوصال النساء وظفرت بعيش

صالح ناعم منهن ولا يوم من تلك الأيام مثل يوم دارة جلجل، يريد أن ذلك اليوم كان أحسن الأيام وأتمها ، فأفادت ولا سيما التفضيل والتخصيص.

وَيَوْمَ عَقَرْتُ لِلْعَذَارَى مَطِيَّتِي فَيَا عَجَباً مِنْ كُورِهَا الْمُتَحَمَّلِ

الشرح : العذراء من النساء : البكر التي لم تفتض ، والجمع العذارى ، الكور : الرحل بأداته ، والجمع الأكوار والكيران ، ويروى : من رحلها ، المتحمل : الحمل . فتح يوم بسبب من كونه معطوفا على مجرور أو مرفوع وهو يوم أو يوم بدارة جلجل ، لأنه بناه على الفتح لما أضافه إلى مبني وهو الفعل الماضي ، وذلك قوله : عقرت . وقد يبنى المعرب إذا أضيف إلى مبني ، ومنه قوله تعالى:"إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون" ، فبنى مثل على الفتح مع كونه نعتا لمرفوع لما أضافه إلى ما وكانت مبنية ، ومنه قراءة من قرأ :"ومن خزي يومئذ" ، بنى يوم على الفتح لما أضافه إلى إذ وهي مبنية وإن كان مضافا إليه ، ومثله قول النابغة الذبياني :على حين عاتبت المشيب على الصبا فقلت ألما تصح والشيب وازع بنى حين على الفتح لما أضافه إلى الفعل الماضي ، وقد فضل الشاعر يوم دارة جلجل ، ويم عقر مطيته للابكار على سائر الأيام الصالحة التي فاز بها من حبائبه ، ثم تعجب من حملهن رحل مطيته وأداته بعد عقرها واقتسامهن متاعه بعد ذلك ، فيا عجبا : الألف فيه بدل من ياء الإضافة ، وكان الأصل هو فيا عجبي ، وياء الإضافة يجوز قلبها ألفا في النداء نحو يا غلاما في يا غلامي ، فإن قيل : كيف نادى العجب وليس مما يعقل ؟ قيل في جوابه: إن المنادى محذوف ، والتقدير :ياهؤلاء ، أو يا قوم ، اشهدوا عجبي من كورها المتحمل ، فتعجبوا منه ، فانه قد جاوز المدى والغاية القصوى ، وقيل : بل نادى العجب اتساعا ومجازا ، فكأنه قال : ياعجبي تعال واحضر فإن هذا أوان إتيانك وحضورك.

فَظَلَّ الْعَذَارَى يَرْتَمِينَ بِلَحْمِهَا وَشَحْمٍ كَهُدَّابِ الدِّمَقْسِ الْمُفَتَّلِ

الشرح : يقال :ظل زيد قائما إذا أتى عليه النهار وهو قائم ، وبات زيد نائما إذا أتى عليه الليل وهو نائم ، وطفق زيد يقرأ القرآن إذا أخذ فيه ليلا ونهارا ، الهداب والهدب : اسمان لما استرسل من الشيء نحو ما استرسل من الأشفار ومن الشعر ومن أطراف الأثواب ، الواحد هدابة وهدبة ، ويجمع الهدب على الأهداب ، الدمقس والمدقس: الإبريسم ، وقيل هو الأبيض منه خاصة. يقول : فجعلن يلقي

بعضهن إلى بعض شواء المطية استطابة أو توسعا فيه طول نهارهن وشبه لحمها بالإبريسم الذي أجيد قتله وبولغ فيه ، وقيل هو القز.

وَيَوْمَ دَخَلْتُ الْخِدْرِ خَدْرَ عُنَيْزَةٍ فَقَالَتْ لَكَ الْوَيْلاتُ إِنَّكَ مُرْجِلي

الشرح : الخدر :والهودج ، والجمع الخدور ، ويستعار للستر والحجلة وغيرهما ، ومنه قولهم : خدرت الجارية وجارية مخدرة أي مقصورة في خدرها لا تبرز منه ، ومن ذلك قولهم : خدر الأسد يخدر خدرا وأخدر إخدارا . إذا لزم عرينه ، ومنه قول ليلى الأخيلية: فتى كان أحيا من فتاة حيية وأشجع من ليث يخفان خادر وقول الشاعر: كالأسد الورد غدا من مخدره والمراد بالخدر في البيت الهودج ، عنيزة :اسم عشيقته وهي إبنة عمه وقيل : هو لقب لها واسمها فاطمة ، وقيل بل اسمها عنيزة ، وفاطمة غيرها ، قوله : فقالت لك الويلات ، أكثر الناس على أن هذا دعاء منها عليه ، والويلات : جمع ويلة ، والويلة والويل: شدة العذاب ، وزعم بعضهم أنه دعاء منها له في معرض الدعاء عليه ، والعرب تفعل ذلك صرفا لعين الكمال عن المدعو عليه . ومنه قولهم : قاتلة الله ما أفصحه ! ومنه قول جميل : رمى الله في عيني بثينة بالقذى وفي الغر من أنيابها بالقوادح ، ويقال : رجل الرجل يرجل رجلا فهو راجل ، وأرجلته أنا صيرته راجلا ، خدر عنيزة بدل من الخدر الأول والمعنى : ويوم دخلت خدر عنيزة ، وهذا مثل قوله تعالى : "لعلي أبلغ الأسباب أسباب السموات " ومنه قول الشاعر: يا تيم ياتيم عدي لا أبا لكمو لا يلفينكمو في سوأة عمر وصرف عنيزة لضرورة الشعر وهي لا تنصرف ، للتأنيث والتعريف. يقول: ويوم دخلت هودج عنيزة فدعت علي أو دعت لي في معرض الدعاء علي ، وقالت إنك تصيرني راجلة لعقرك ظهر بعيري ، يريد أن هذا اليوم كان من محاسن الأيام الصالحة التي نالها منهن أيضا.

تَقُولُ وَقَدْ مَالَ الْغَبِيط بِنَامَعاً عَقَرْتَ بَعيري يَا امْرأَ القَيْسِ فَانْزِلِ

الشرح : الغبيط :ضرب من الرحال ، وقيل بل ضرب من الهوادج ، الباء في قوله : بنا للتعدية وقد أمالنا الغبيط جميعا ، عقرت بعيري: أدبرت ظهره ، من قولهم : كلب عقور ، ولا يقال في ذي الروح إلا عقور. يقول : كانت هذه المرأة تقول لي في حال إمالة الهودج أو الرحل إبانا : قد أدبرت ظهر بعيرى فأنزل عن البعير.

فَقُلْتُ لَهَا سِيري وأرْخِي زِمَامَهُ وَلا تُبْعِدِيني مِنْ جَنَاكِ ٱلْمعَلَّلِ

الشرح : جعل العشيقة بمنزلة الشجرة ، وجعل ما نال من عناقها وتقبيلها وشمها بمنزلة الثمرة ليتناسب الكلام ، المعلل : المكرر ، من قولهم : عله يعله إذا كرر سقيه ، وعلله للتكثير والتكرير . والمعلل : الملهى ، من قولك : عللت الصبي بفاكهة أي ألهيته بها : وقد روي اللفظ في البيت بكسر اللام وفتحها ، والمعنى على ما ذكرنا يقول : فقلت للعشيقة بعد أمرها إياي بالنزول : سيري وأرخي زمام البعير ولا تبعديني مما أنال من عناقك وشمك وتقبيلك الذي يلهيني أو الذي أكرره . ويقال لمن على الدابة سار يسير ، كما يقال للماشي كذلك قال: سيري وهي راكبة ، الجنى : اسم لما يجتنى من الشجر ، والجنى المصدر ، يقال : جنيت الثمرة واجتنيتها.

أَفاطِمَ مَهْلاً بَعْضَ هذا التَّدَلّلِ وَإِن كنتِ قد أَزْمعْتِ صَرْمي فأَجْمِلي

الشرح : مهلا :أي رفقا ، الإدلال والتدليل : أن يثق الإنسان بحب غيره إياه فيؤذيه على حسب ثقته به ، والاسم الدل والدال والدلال ، أزمعت الأمر وأزمعت عليه : وطنت نفسي عليه يقول : يافاطمة دعي بعض دلالك وإن كنت وطنت نفسك على فراقي فأجملي الهجران . نصب بعض لأن مهلا ينوب مناب دع ، الصرم : المصدر ، يقال : صرمت الرجل أصرمه صرما إذا قطعت كلامه ، والصرم هو الاسم ، فاطمه : اسم المرضع واسم عنيزة ، عنيزة لقب لها فيما قيل.

أَغَرَّكِ منِّي أن حبَّكِ قاتِلي وَأَنَّكِ مهما تأْمري الْقلبَ يَفْعَلِ

الشرح : يقول :قد غرك مني كون حبك قاتلي وكون قلبي منقادا لك بحيث مهما أمرته بشيء فعله . وألف الاستفهام دخلت على هذا القول للتقرير لا للاستفهام والاستخبار،ومنه قول جرير:ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح ...يريد أنهم خير هؤلاء ، وقيل : بل معناه قد غرك مني أنك علمت أن حبك مذللي ، والقتل التذليل ، وأنك تملكين قؤادك فمهما أمرت بقلبك بشيء أسرع إلى مرادك فتحسبين أني أملك عنان قلبي كما ملكت عنان قلبك حتى سهل علي فراقك كما سهل عليك فراقي ، ومن الناس من حمله على مقتضى الظاهر وقال : عنى البيت: أتوهمت وحسبت أن حبك يقتلني أو أنك مهما أمرت قلبي بشيء فعله ؟ قال : يريد أن الأمر ليس على ما خيل إليك فإني مالك زمام قلبي ، والوجه

الأمثل هو الوجه الأول وهذا القول أرذل الأقوال لأن مثل هذا الكلام لا يستحسن في النسيب.

وَإِنْ تَكُ قد ساء تك مِني خَليقةٌ فسُلِّي ثيابي من ثيابِكِ تَنْسُلِ

الشرح : من الناس من جعل الثياب في هذا البيت بمعنى القلب ، كما حملت الثياب على القلب في قول عنتره : فشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم وقد حملت الثياب في قوله تعالى:"وثيابك فطهر" على أن المراد به القلب ، فالمعنى على هذا القول : إن ساءك خلق من أخلاقي وكرهت خصلة من خصالي فردي علي قلبي أفارقك ، والمعنى على هذا القول : استخرجي قلبي من قلبك يفارقه ، النسول : سقوط الريش والوبر والصوف والشعر ، يقال : نسل ريش الطائر ينسل نسولا ، واسم ما سقط النسيل والنسال ، ومنهم من رواه تنسلي وجعل الانسلاء بمعنى التسلي ، والرواية الأولى أولاهما بالصواب ، ومن الناس من حمل الثياب في البيت على الثياب الملبوسة وقال : كنى بتباين الثياب وتباعدها عن تباعدهما ، وقال : إن ساءك شيء من أخلاقي فاستخرجي ثيابي من ثيابك أي ففارقيني وصارميني كما تحبين ، فإني لا اؤثر إلا ما آثرت ولا اختار إلا ما اخترت ، لانقيادي لك وميلي إليك ، فإذا آثرت فراقي آثرته وإن كان سبب هلاكي .

وَما ذَرَفَتْ عَيْناكِ إلا لِتضرِبي بِسَهْمَيْكِ في أَعْشارِ قَلْبٍ مُقَتَّلِ

الشرح : ذرف الدمع يذرف ذريفا وذرفانا وتذرافا إذا سال ، ثم يقال ذرفت كما يقال دمعت عينه ، وللأئمة في البيت قولان ، قال الأكثرون : استعار للحظ عينيها ودمعهما اسم السهم لتأثيرهما في القلوب وجرحهما إياها كما ان السهام تجرح الأجسام وتؤثر فيها ، الأعشار من قولهم : برمة أعشار إذا كانت قطعا ، ولا واحد لها من لفظها ، المقتل : المذلل غاية التذليل ، والقتل في الكلام التذليل ، ومنه قولهم : قتلت الشراب إذ فللت غرب سورته بالمزاج ، ومنه قول الأخطل : فقلت اقتلوها عنكم بمزاجها وحب بها مقتولة حين تقتل وقال حسان: إن التي ناولتني فرددتها قتلت قتلت فهاتها لم تقتل ومنه : قتلت أرض جاهلها وقتل ارضا عالمها ، ومنه قوله تعالى : "وما قتلوه يقينا" عند أكثر الأئمة : أي ما ذللوا قولهم بالعلم اليقين . وتلخيص المعنى على هذا القول : وما دمعت عيناك وما بكيت إلا لتصيدي قلبي بسهمي دمع عينيك وتجرحي قطع قلبي الذي ذللته بعشقك غاية

التذليل ، أي نكايتها في قلبي نكاية السهم في المرمى ، وقال آخرون : أراد بالسهمين المعلى والرقيب من سهام الميسر والجزور يقسم بهذين القدحين فقد فاز بجميع الاجزاء وظفر بالجزور ، وتلخيص المعنى على هذا القول: وما بكيت إلا لتملكي قلبي كله وتفوزي بجميع أعشاره وتذهبي به ، والأعشار على هذا القول جمع عشر لأن اجزاء الجزور عشرة ، والله أعلم.

وَلَيلٍ كمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَى سُدولَهُ عليَّ بأَنْواعِ الْهمُومِ ليبْتَلي

الشرح : شبه ظلام الليل في هوله وصعوبته ونكارة أمره بامواج البحر ، السدول : الستور ، الواحد منها سدل ، الإرخاء . إرسال السدل وغيره ، الابتلاء:الاختبار ، الهموم : جمع الهم ، بمعنى الحزن وبمعنى الهمة . الباء في قوله : بأنواع الهموم ، بمعنى مع يقول : ورب ليل يحاكي أمواج البحر في توحشه ونكارة أمره وقد أرخى علي ستور ظلامه مع أنواع الأحزان ، أو مع فنون الهم ، ليختبرني أأصبر على ضروب الشدائد وفنون النوائب أم أجزع منها . ولقد أمعن الشاعر في النسيب من أول القصيدة إلى هنا حيث انتقل منه إلى التمدح بالصبر والجلد.

فَقلْتُ لَهُ لَّما تَمَطَّى بصُلْبِهِ وَأَرْدَفَ أَعْجَازاً وَنَاءَ بكَلْكَلِ

الشرح : تمطى أي تمدد ، ويجوز أن يكون التمطي مأخوذا من المطا ، وهو الظهر ، فيكون المتمضي مد الظهر ، ويجوز أن يكون منقولا من التمطط فقبلت إحدى الطاءين ياء كما قالوا ، تظنى تظنيا والأصل تظنن تظننا ، وقالوا : تقضى البازى تقضيا أي تقضض تقضضا ، والتمطط التفعل من المط ، وهو المد ، وفي الصلب ثلاث لغات مشهورة ، وهي : الصلب ، بضم الصاد وسكون اللام ، والصلب بضمهما ، والصلب ، بفتحهما ، ومنه قول العجاج يصف جارية : ربا العظام فخمة المخدم في صلب مثل العنان المؤدم ولغة غريبة وهي الصالب ، وقال العباس عم النبي ، صلى الله عليه وسلم يمدح النبي ، عليه السلام : تنقل من صالب إلى رحم إذا مضى عالم بدا طبق ، الإرداف : الإتباع والاتباع وهو بمعنى الأول هاهنا ، الأعجاز : المآخير ، الواحد عجز ، ناء: مقلوب نأي بمعنى بعد ، كما قالوا راء بمعنى رأى وشاء بمعنى شأى ، الكلكل : الصدر، والجمع كلاكل . الباء في قوله ناء بكلكل للتعدية ، وكذلك هي في قوله تمطي بصببة ، استعار الليل صلبا واستعار لطوله لفظ التمطي ليلائم الصلب ، واستعار لأوائله لفظ

الكلكل ولمآخيره الأعجاز يقول : فقلت لليل لما مد صلبه يعني لما أفرط طوله ، وأردف أعجازا يعني ازدادت مآخيره امتدادا وتطاولا ، وناء بكلكل يعني أبعد صدره ، أي بعد العهد بأوله ، وتلخيص المعنى : قلت لليل لما افرط طوله وناءت أوائله وازدادت أواخره تطاولا ، وطول الليل ينبئ عن مقاساة الأحزان والشدائد والسهر المتولد منها ، لأن المغموم يستطيل ليله ، والمسرور يستقصر ليله.

أَلا أَيُّها اللَّيْلُ الطَّويلُ أَلا انْجَلي بصُبْحٍ وما الإِصْباحُ مِنكَ بأَمْثَل

الشرح : الانجلاء :الانكشاف ، يقال : جلوته فانجلى أي كشفته فانكشف . الأمثل : الأفضل ، والمثلى الفضلى ، الأماثل الأفاضل. يقول : قلت له ألا أنها الليل الطويل انكشف وتنح بصبح ، أي ليزل ظلامك بضياء من الصبح ، ثم قال : وليس الصبح بأفضل منك عندي لأني أقاسي الهموم نهارا كما اعانيها ليلا ، أو لأن نهاري أظلم في عيني - لأزدحام الهموم علي حتى حكى الليل ، وهذا إذا رويت - وما الإصباح منك بأمثل ، وأن رويت "فيك بأفضل" كان المعنى : وما الإصباح في جنبك أو في الإضافة إليك أفضل منك ، لما ذكرنا من المعنى لما ضجر بتطاول ليله خاطبه وسأله الانكشاف . وخطابه ما لا يعقل يدل على فرط الوله وشدة التحير ، وإنما يستحسن هذا الضرب في النسيب والمرائي وما يوجب حزنا وكآبة ووجدا وصبابة.

فيا لكَ مِن لَيْلٍ كأَنَّ نُجومَهُ بأَمْراسِ كتَّانٍ إلى صُمِّ جندَلِ

الشرح : الأمراس جمع مرس: وهو الحبل ، وقد يكون المرس جمع مرسة وهو الحبل أيضا فتكون الامراس حينئذ جمع الجمع ، وقوله : بأمراس كتان ، من إضافة البعض إلى الكل ، أي بأمراس من كتان ، كقولهم : باب حديد ، وخاتم فضة ، وجبة خز ، الاصم : الصلب ، وتأنيثه الصماء ، والجمع الصم ، الجندل : الصخرة ، والجمع جنادل يقول مخاطبا الليل : فيا عجبا لك من ليل كأن نجومه شدت بحبال من الكتان إلى صخور صلاب ، وذلك أنه استطال الليل فيقول إن نجومه لا تزول من أماكنها ولا تغرب فكأنها مشدودة بحبال إلى صخور صلبة ، وإنما استطال الشاعر الليل لمعاناته الهموم ومقاساته الاحزان فيه وقوله : بأمراس كتان ، يعني ربطت ، فحذف الفعل لدلالة الكلام على حذفه ، ومنه قول الشاعر: مسسنا من الآباء شيئا فكلتنا إلى حسب في قومه غير واضع يعني لفكلنا يعتزي أو ينتمي أو ينتسب إلى حسب ، فحذف الفعل لدلالة باقي الكلام عليه .

ويروى : كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت بيذبل ، هذا أعرف الروايتين وأسيرهما ، الاغارة : إحكام الفتل ، يذبل : جبل بعينه يقول : كأن نجومه قد شدت إلى يذبل بكل حبل محكم الفتل.

وَقَدْ أَغْتَدي والطَّيْرُ في وُكُناتِها بُمنْجَرِدٍ قَيْدِ الاوابِدِ هيْكلِ

الشرح : غدا يغدو غدوا ، واغتدى اغتداء ، واحد ، الطير: جمع طائر مثل الشرب في جمع شارب والتجر في جمع تاجر والركب في جمع راكب . ثم يجمع على الطيور مثل بيت وبيوت وشيخ وشيوخ ، الوكنات : مواقع الطير ، واحدتها وكنة ، وتقلب الواو همزة فيقال : أكنة ، ثم تجمع الوكنة على الوكنات ، بضم الفاء والعين ، وعلى الوكنات ، بضم الفاء والعين ، وعلى الوكنات ، بضم الفاء وفتح العين ، وعلى الوكنات ، بضم الفاء وسكون العين ، وتكسر على الوكن ، وهكذا حكم فعله ، نحو ظلمة وظلمات وظلمات وظلم ، المنجرد : الماضي في السير ، وقيل : بل هو قليل الشعر ، الأوابد : الوحوش ، وقد أبد الوحش يأبد أبودا ، ومنه تأبد الموضع إذا توحش وخلا من القطان ، ومنه قيل للفذ آبدة لتوحشه عن الطباع ، الهيكل ، قال ابن دريد : هو الفرس العظيم الجرم ، والجمع الهياكل يقول: وقد اغتدي والطير بعد مستقرة على مواقعها التي باتت عليها على فرس ماض في السير قليل الشعر يقيد الوحوش بسرعة لحاقه إياها كما أنه عظيم الألواح والجرم ، وتحرير المعنى : انه تمدح بمعاناة دجى الليل وإهواله ، ثم تمدح بتحمل حقوق العفاة والأضياف والزوار ، ثم تمدح بطي الفيافي والاودية ، ثم أنشأ الآن يتمدح بالفروسية . يقول : وربما باكرت الصيد قبل نهوض الطير من أوكارها على فرس هذه صفته . وقوله : قيد الأوابد ، جعله لسرعة إدراكه الصيد كالقيد لأنها لا يمكنها الفوت منه كما أن المقيد غير متمكن من الفوت والهرب.

مِكَر مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعاً كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حطَّهُ السَّيْل من عَلِ

الشرح : الكر :العطف ، يقال : كر فرسه على عدوه أي عطفه عليه ، والكر والكرور جميعا الرجوع ، يقال : كر من قرنه يكر كرا وكرورا ، والمكر مفعل من كر يكر ، ومفعل يتضمن مبالغة كقولهم : فلان مسعر حرب وفلان مقول ومصقع ، وإنما جعلوه متضمنا مبالغة لان مفعلا قد يكون من اسماء الأدوات نحو المعول والمخرز ، فجعل كأنه أداة للكرور وآلة لتسعير الحرب غير ذلك ، مفر: مفعل من

فر يفر فرارا ، والكلام فيه نحو الكلام في مكر. الجلمود والجلمد : الحجر العظيم الصلب ، والجمع جلامد وجلاميد ، الصخر: الحجر ، الواحد صخرة ، وجمع الصخر صخور ، الحط : إلقاء الشيء من علو إلى أسفل ، يقال : أتيته من عل ، مضمونة اللام ، ومن علو ، بفتح الواو وضمها وكسرها،ومن علي،بياء ساكنة،ومن عال مثل قاض،ومن معال مثل معاد ، ولغة ثامنة يقال من علا ، وأنشد الفراء : باتت تنوش الحوض نوشا من علا نوشا به تقطع أجوان الفلا وقوله : كجلمود صخر ، من إضافة بعض الشيء إلى كله مثل باب حديد وجبة خز ، أي كجلمود من صخر يقول : هذا الفرس مكر إذا أريد منه الكر ومفر إذا إذا أريد منه الفر ومقبل إذا أريد منه إقباله ودبر إذا أريد منه إدباره . وقوله : معا ، يعنى أن الكر والفر والإقبال والإدبار مجتمعة في قوته لا في فعله لأن فيها تضادا ، ثم شبهه في سرعة مره وصلابة خلقه بحجر عظيم ألقاه السيل من مكان عال إلى حضيض.

مكانـــة الشعـــر

فـــــى

صـــدر الإســـلام

الشعر فن جميل يطلب فيه الرواء والإمتاع، ويستحسن فيه الحجة والإقناع، كما يستحسن فيه الاعتماد علي الدعوة الهادفة والكلمة الصادقة .

وما أعتقد أن أمة علي الإطلاق قد اهتمت بالشعر اهتمام الأمة العربية به فلقد كان العرب يحتفون بالشعر والشعراء ، وكانت الفرحة تغمرهم إذا ولد في القبيلة شاعر ، وكانت مكانة الشاعر تسمو في بعض الأحيان علي منزلة كثير من أبناء قبيلته فكان يختار ضمن مجلس العشيرة .

لقد كان الشاعر هو الذي يسجل محامد القبيلة، ويذكر مآثرها ، ويدفع قومه إلي المكرمات وتحقيق الأمجاد، ويحثهم علي طلب الثأر ويهجو خصومه ، ويرفع منزلة قبيلته ويمدحها ، ولربما كان بيت واحد من الشعر يرفع أقواما ويضع آخرين .

" وكان العرب يرون أن الشعر خير كلامهم وأفضل فخارهم ؛ لأنه ديوانهم الذي يسجلون فيه حروبهم " [1] وأمجادهم وتاريخهم ، وهو مجال فصاحتهم الذي يتبارون فيه ، ويتسابقون إليه .

ولقد جاء القرآن متحديا هاتيك البلاغة وتلك الفصاحة فما استطاع القوم – رغم أنهم أساطين البلاغة وأرباب الفصاحة – أن يأتوا بآية من مثله(٢) فلقد بهروا أمامه وبهتوا واعترفوا بعلو القرآن وسمو نظمه .

---

[1] – الشعر الإسلامي في صدر الإسلام / د . عبد الله الحامد / صـ ٢٢ / ط ١ / مطابع الإشعاع التجارية بالرياض سنة ١٩٨٠ .

(٢) قال تعالي:" وإن كنتم في ريب مما نزلنا علي عبدنا فأتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين " – البقرة ٢٣ ، ٢٤ .

لقد كانت مكانة الشعر في العصر الجاهلي سامية سامقة ، وحينما جاء الإسلام كان له موقفه الواضح الجلي من الشعر والشعراء فهو يرفض من الشعر ما يتنافي وتعاليم الدين ، ويرضي منه بكل ما يتساوق وقيمه الجلية .

ولكن البعض حاول أن يشوه تلك الصورة فادعي أن الشعر قد ضعف وقلَّ واضمحل في ظل الإسلام ، وذهب إلي أن الإسلام قد حمل علي الشعر وشن حربا شعواء علي الشعر والشعراء .

ولكن !

هل حقا قل الشعر واضمحل في ظل الإسلام ولم تكن له تلك المكانة السامية التي احتلها في العصر السابق ، نقصد العصر الجاهلي .

وللرد علي ذلك يمكن أن نتوقف عند عدة نقاط نستدل بها علي أن الشعر لم يقل ولم يضمحل ونرد بها علي هؤلاء ونبرهن علي أن مكانته لم تهتز في ظل الإسلام بل عدَّل الإسلام مساره وهذب أشجاره وأينع ثماره .

١- ينبغي أن نعلم أن القرآن الكريم حينما نفي صفة الشاعرية عن الرسول صلي الله عليه وسلم في قوله تعالي : وما علمناه الشعر وما ينبغي له (١) إنما نفاها لأسباب أهمها.

أن النبي صلي الله عليه وسلم وهو حامل لواء الدين ومرتل آى القرآن الكريم والمرسل نذيرا وبشيرا ما كان يمكن أن يقول كلاما من عنده ، وإنما هو يتلو كلاما منزلا من قبل الله عز وجل.

أن نفي صفة الشاعرية عن الرسول صلي الله عليه وسلم امتداد طبيعي لنفي صفة الشعر عن القرآن الكريم .

ج- ما كان للدعوة الإسلامية أن تقبل " لو كان الرسول صلي الله عليه وسلم شاعرا فلقد عرف العرب أن الشاعر تابع الشيطان منه يقتبس وعنه يتلقي الإلهام ".

د- أن مهمة الرسول صلي الله عليه وسلم لم تكن الامتاع الفني بل هي مهمة أسمي وهي الإقناع العقلي والتبشير بدين سماوي عظيم ينظم للناس حياتهم .

---

(١) سورة يس- ٦٩. / ٢ - الشعر الإسلامي / عبدالله الحامد / صـ ٢٤

هـ - ما عرف عن الشعر من الميل إلي المبالغة والادعاء وما اشتهر به الشعراء من الجنوح إلي الخيال والتهويل والتهويم .

٢- أن الرسول صلي الله عليه وسلم ما كان يقيم إنشاد الأبيات علي الإطلاق كما دلت علي ذلك الأخبار الصحيحة والأحاديث الصريحة الدلالة.

والبيت الذي صح وزنه وجري علي لسان رسول الله صلي الله عليه وسلم وهو من الرجز، المنهوك والمشطور قوله .

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

٣- كان الرسول صلي الله عليه وسلم – وهو العربي الخالص – يتذوق فن الكلام ويعرف ما للشعر من قيمة وتأثير فهو أفصح العرب علي الإطلاق ، وعليه نزلت أفصح الكلمات .

٤- قول الرسول صلي الله عليه وسلم عن امرئ القيس بأنه قائد لواء الشعراء إلي جهنم(١) يعود إلي ما في شعر امرئ القيس من تهتك وفجور وعهر ومجون وما فيه من مخالفة لدين الله ، فامرؤ القيس هو أول من فتح أمثال هذه الأبواب المجونية فنهج الشعراء الفاسدون نهجه وسلكوا سبيله واتخذوا طريقه ، ولعل الرسول بهذا الحديث يحذر الشعراء من السير علي طريقة امرئ القيس وكأنما يريد إن يقول لهم إن من سار علي نهج امرئ القيس فلسوف يلقي جزاءه في جهنم .

٥- لكي نرد علي المدعين الذين ذهبوا إلي أن الإسلام هاجم الشعراء في قوله تعالي " والشعراء يتبعهم الغاوون ....." لابد أن نشير إلي ضرورة إكمال الآيات التي وردت في سورة الشعراء ولا نصنع صنيع المتوقفين عند قوله تعالي : ولا تقربوا الصلاة ....." أو صنيع المغرضين الذين يزعمون أن الله توعد المصلين بالويل في

(١) ابن عساكر ، التاريخ الكبير،جـ ٣ صـ١٠٥ ، وابن رشيق /العمده ، جـ ١ص٧٦ ، والعقد الفريد ، جـ٥ ، ص ٢٧٠ وقد قال عنه صلي الله عليه وسلم " ذلك رجل مذكور في الدنيا منسي في الآخرة شريف في الدنيا خامل في الآخرة ويجئ يوم القيامة في يده لواء الشعراء "

قوله تعالي "ويل للمصلين ....."فلقد قال عز من قائل ": ولا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى (١) " وقال ويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون " (٢)

ولهذا يجب أن نكمل الآيات في سورة الشعراء " والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعدما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون " (٣) ففي نهاية الآيات استثناء يخرج الشعراء المؤمنين من دائرة الشعراء الغاوين الهائمين في كل واد.

ولهذا يجب أن يلاحظ أن المقصود بالشعراء الغاوين هم المشركون الذين آذوا النبي بالهجاء وهذا ما فهمه ابن رشيق من الآية ، ومما يدلنا علي ذلك الفهم أنه لما نزلت هذه الآية جاء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحه وكعب بن مالك إلي رسول الله وهم يبكون فقالوا قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء (٤) فتلا النبي صلي الله عليه وسلم"إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

٦- لكي نفهم قوله صلي الله عليه وسلم " لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلئ شعرا" يجب أن نعرف أولا أن الشاعر كالنحلة تأخذ من كل زهرة رشفة ومن كل بحر قطرة وأن أفكاره بعيدة عن الثبات والاستقرار وهو واسع الخيال فإنه يقول أحيانا ما لا يفعل فيفتخر ويدعي الغلبة وهو المغلوب ويزعم أنه انتصر وهو المهزوم المقهور .

ويجب أن نربط هذا الحديث بمناسبته فهي تلقي ضوءا من البيان عليه فعن أبي سعيد رضي الله عنه قال : بينما نحن نسير مع رسول الله صلي الله عليه وسلم بالعْرج " واد بالحجاز" إذ عرض شاعر ينشد فقال الرسول صلي الله عليه

---

(١) سورة النساء / ٤٣ .

(٢) سورة الماعون / ٤، ٥ .

(٣) سورة الشعراء / ٢٢٤– ٢٢٧.

(٤) .انظر تفسير الطبري ، ج ١٩ ، ص ٧٩ ،وانظر الآدب في عهد النبوة والراشدين / د صلاح الدين الهادي ، صـ ٢١٦ – ٢١٨ / ط الخانجي سنة ١٩٨٧ م ، وانظر العصر الاسلامي / د شوقي ضيف / ص٤١ ، دار المعارف .

وسلم خذوا الشيطان أو أمسكوا الشيطان ." لأن يمتلئ جوف رجل قيحا خير له من أن يمتلئ شعرا (١) ومن سياق المناسبة يبدو أن الشاعر فاجأ القوم يتغني بما يكرهون وما كانوا يكرهون إلا حديثا يمت إلي صنم أو يتصل بوثن أو يهدم فضيلة أو يدعو إلي فساد٢ ورذيلة وهم في موقف ليسوا في حاجة فيه إلي الشعر فلقد كانوا مشغولين بما هو أهم ؛ ولذا فقد فسر الحديث بأن يمتلئ قلبه حتى يشغله عن القرآن وذكر الله ووضع في البخاري تحت باب " ما يكره أن يكون الغالب علي الإنسان الشعر حتى يصده عن الله والعلم والقرآن .

وفسر أيضا بأن المراد بالشعر شعر هجي به النبي صلي الله عليه وسلم

ويقصد بذلك الرجل الذي غلب الشعر على قلبه وملك عليه نفسه حتى شغله عن دينه وإقامة فرائض الله ، وأما ما يتخذ من الشعر أدبا وفكاهة طيبة وإقامة مروءة فلا جناح عليه .

هذا بالإضافة إلي أن الحديث يروي براوية أخري هي :.....خير له من أن يمتلئ شعرا هجيت به "

٧- ما جاء في القرآن الكريم من آيات أو ما جاء علي لسان الرسول صلي الله عليه وسلم من كلمات علي وزن شعري ليست من الشعر رغم أنها موزونة وذلك مثل قول الله عز وجل " إن بعض الظن إثم (٣) فهو من مجزوء الرمل ولكنه ليس شعرا .

وكذلك ما جاء علي لسان الرسول صلي الله عليه وسلم مثل قوله :" اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فأكرم الأنصار والمهاجرة " (٤) وقوله " أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب " فهي عبارات موزونه لكنها تفقد القافية الموحدة كما أنها لم

---

(١) صحيح مسلم / جـ٤، ص ١٧٦٩ ، ط دار الحديث القاهرة ، سنة ١٩٩٠ م وقال بعضهم وفي روايات أخري في صحيح مسلم فيها.

قول الرسول صلي الله عليه وسلم، لأن يمتلئ جوف الرجل قيحا يريه خير من أن يمتلئ شعرا وقوله صلي الله عليه وسلم"لأن يمتلئ جوف أحدكم قيمحا يريه خير من أن يمتلئ شعرا .

(٢) الشعر الإسلامي / د. عبداله الحامد / صـ ٢٩ – ٣٠ .

(٣) سورة الحجرات / آية١٢

(٤) صحيح البخاري ، جـ ٤ ، ص ٤٢ .

تأت مقصودة لذاتها إنما جاءت هكذا عفوا بدون تعمد هذا من قبيل المنثور الذي يوافق المنظوم لأنه لا يراد به الشعر وإن كان موزونا .

٨- علينا أن نعلن أن مكانة الشعر لم تهتز في ظل الإسلام ولم تقل بل كان للشعر مكانة بارزة سامية سامقة ، وللدلالة على ذلك يمكن أن نسوق بعض مواقف النبي صلى الله عليه وسلم وبعض مواقف الصحابة من الشعر لنبرهن على صدق ما نذهب إليه .

أ- موقف النبي صلى الله عليه وسلم من الشعر:

تدلنا الدلائل علي الرسول صلى الله عليه وسلم كان يحب الشعر ويتذوقه وينقده ويستحسن بعضه ويستهجن بعضه ويتأثر به ويتمثل به في بعض المواقف ويرفع من مكانة الشعراء ويعلي من منزلتهم ويحيهم ويقربهم إليه ويدنيهم .

ويمكن أن نسوق للدلالة علي ذلك ما يأتي :

١- قوله صلى الله عليه وسلم :" إنما الشعر كلام فحسنه حسن وقبيحه قبيح وقوله عليه السلام :" إن من البيان سحرا، وإن من الشعر حكما " حينما أعجب بكلام عمرو بن الأهتم ، وقوله صلى الله عليه وسلم : " إن من الشعر لحكمة "(١)

والحديث الأول قاله الرسول صلى الله عليه وسلم تعليقا على أبيات العلاء ابن الحضرمي التي يقول فيها "

حي ذوى الأضغان تسب قلوبهم تحيتك القربى فقد ترقع النعلْ

فإن دحسوا بالكره فاعف تكرما وإن خنسوا عنك الحديث فلا تسل

فإن الذي يؤذيك منه استماعه وإن الذي قالوا وراءك لم يُقل٢

وروي الحديث بصورة أخري هي " إن من الشعر لحكمة فإذا ألبس عليكم شئ من القرآن فالتمسوه في الشعر فإنه عربي " .

وللحديث الأخير مناسبة وهي أن أحد أصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم كان قد خرج في إحدى الغزوات وكان الدم يسيل من جرحه بشكل متواصل ولم يجد

---

(١) صحيح مسلم / جـ٤،ص ١٩٣٢ ، وانظر العقد الفريد /جـ٦ ، صـ١٢٣ "

٢ عيون الأخبار / ابن قتيبة/ ج٢/ص١٨/ط الذخائر سنة ٢٠٠٣ م.

فيه ضماد حتى جاء حسان فقال ائتوني بالكافور فوضع الكافور علي الجرح فجف الدم فسأل النبي حسانا من أين اقتبست هذا يا حسان فقال من قول الشاعر.

فكرت ليلة وصلها في هجرها فجرت مدامع مقلتي كالعندم

فطفت أمسح مقلتي بخدها إذ عادة الكافور إمساك الدم (١)

فقال النبي صلي الله عليه وسلم " إن من الشعر لحكمة" .

٢- كان صلي الله عليه وسلم يضع لحسان بن ثابت رضي الله عنه منبرا في المسجد ينشد فيه الأشعار وينافح عن الدين العظيم كما يدافع عن النبى

الكريم صلي الله عليه وسلم (٢)

٣- كان عليه السلام يدعو لحسان فيقول :" اللهم أيده بروح القدس " وكان يقول له :" اهجهم وروح القدس معك " وفي رواية " اهجهم وجبريل معك"(٣).

٤- جاء حسان يستأذن النبي صلي الله عليه وسلم في هجاء المشركين فقال له وكيف بنسبي ؟ فقال " والله لأسلنك كما تسل الشعرة من العجين "(٤).

٥- كان يقول عن شعر حسان " لهذا أشد عليهم من وقع النبل "(٥)

---

(١) المزهر / السيوطي / ج٢ ، ص٤٧٠

(٢) انظر كتاب " المساجد في الإسلام " إذ يقول مؤلفة طه الولي :" يحدثنا المؤرخون عن منبر آخر كان ينصب في المسجد النبوي الشريف بأمر النبي صلي الله عليه وسلم ليقف عليه شاعره حسان بن ثابت عند إنشاد قصائده في مدح النبي صلي الله عليه وسلم وهجاء كفار قريش علي أن هذا المنبر كان يوضع بصورة مؤقتة ثم يرفع بعد انتهاء حسان من إنشاد قصائده .....ولا يعلم هل له درجة أم كان عبارة عن منصة عادية " صـ ١٩٦ .

(٣) صحيح مسلم ، جـ ٤ ، صـ١٩٣٣.

وكان يقول الشعراء المدينة " اهجوا بالشعر ،إن المؤمن يجاهد بنفسه وماله والذي نفس محمد بيده كأنما تنضحونهم بالنبل " مسند الإمام أحمد / جـ ٣ ، صـ ٤٦٠

فيستجيب عبد الله بن رواحة فيعيرهم بالكفر ويهجوهم كعب فيذكر الحرب وأهوالها ثم ينبري حسان فيصيب منهم مقاتلهم ويخرس شعراءهم " ابن سلام / جـ ١ ، صـ ١٨٠

(٣) صحيح مسلم ،جـ٤، صـ١٩٣٤.

٦- قال صلي الله عليه وسلم لكعب بن مالك :" ما نسي ربك شعرا قلته قال وما هو يا رسول الله ؟ فقال أنشده يا أبا بكر فأنشده أبو بكر قوله .

زعت سخينة أن ستغلب ربها وليغلبن مغالب الغلاب (١)

٧- كان عليه السلام يجند الشعر علي المشركين ويدل علي ذلك قوله لحسان شن القطاريف علي بني عبد مناف ، والله لشعرك أشد عليهم من وقع السهام في غلس الظلام . (٢)

٨- كان عليه السلام يستنشد شعر أميه بن أبي الصلت " وأمية هذا شاعر آمن لسانه وكفر قلبه" والدليل علي ذلك ما روي من حديث أبي شيبة عن عمرو بن الشريد عن أبيه قال : " ردفت رسول الله صلي الله عليه وسلم يوما فقال : هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شئ ؟ قلت : نعم فأنشدته بيتا ، فقال : هيه حتى أنشدته مائه قافية ، يقول بعد كل قافية : هيه"(٣).

٩- قال النبي صلي الله عليه وسلم لعبد الله بن رواحة : أخبرني ما الشعر يا عبد الله ؟

قال : شئ يختلج في صدري فينطق به لساني ، قال : فأنشدني ، فأنشده شعره الذي يقول فيه .

فثبت الله ما آتاك من حسن قفوت عيسي بإذن الله والقدر

فقال النبي صلي الله عليه وسلم : وإياك ثبت الله ، وإياك ثبت الله (٤)

١٠- روي عن النبي صلي الله عليه وسلم أنه طلب من عكرمة بن عباس أن ينشده شعرا لأمية بن أبي الصلت فأنشده قوله :

الحمد لله ممسانا ومصبحنا بالخير صبحنا ربي ومسانا

رب الحنيفة لم تنفد خزائنها مملوءة طبق الآفاق سلطانا

---

(٤) صحيح مسلم ،جـ٤، صـ١٩٣٥.

(٥) العقد الفريد ، جـ ٦ ، صـ ١٢٧ .

(٢) العقد الفريد ،جـ٦ ، ١٢٧ .

(٣) صحيح مسلم ، جـ ٤ ، صـ١٧٦٧.

(٤) العقد الفريد ، جـ٦ ، صـ١٢٨.

ألا نبي لنا منا فيخبرنا ما بعد غايتنا من رأس محيانا

وقد عبر الرسول صلي الله عليه وسلم عن إعجابه بهذا الشعر بقوله : إن كاد أمية ليسلم " (١)

١١- كان الرسول صلي الله عليه وسلم يقبل على كل شعر يتضمن حكمة صادقة أو خلقا كريما أو رأيا صائبا في الحياة أو الناس " (٢) والدليل علي ذلك ما روي عن أبي ليلى النابغة الجعدي من أنه قدم علي النبي صلي الله عليه وسلم فأنشده شعره الذي يقول فيه:

بلغنا السماء مجدنا وثناؤنا وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فقال له النبي صلي الله عليه وسلم : إلي أين يا أبا ليلي ؟ فقال : إلي الجنة بك يا رسول الله فقال النبي صلي الله عليه وسلم : إلي الجنة إن شاء الله ، فلما انتهي النابغة إلي قوله :

ولا خير في حلم إذا لم تكن له موارد تحمي صفوه أن يكدرا

ولا خير في جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

فقال له النبي صلي الله عليه وسلم : أجدت ، لا يفضض الله فاك" فعاش النابغة مائة وثلاثين سنة لم تسقط له ثنية (٣)

١٢- سمع النبي صلي الله عليه وسلم السيدة عائشة تنشد شعر زهير بن جناب الذي يقول فيه .

ارفع ضعيفك لا يحلْ بك ضعفه يوما فتدركه عواقب ماجني

يجزيك أو يثني عليك فإن من أثني عليك بما فعلت كمن جزي

فقال صلي الله عليه وسلم : صدق يا عائشة لا يشكر الله من لا يشكر الناس(٤).

١٣- ذكر للنبي صلي الله عليه وسلم قول طرفة :

---

(١) الأغاني / جـ ٣ ، صـ١٨٣ .

(٢) الأدب في عصر النبوة الراشدين /د. صلاح الدين الهادي / صـ ٢٢١ .

(٣) العقد الفريد / جـ٦ ، صـ١٢٦ . وفي رواية : بلغنا السماء مجدنا وجدودنا

وانظر : جمهرة أشعار العرب / أبو زيد القرشي / صـ ٤٩ / ط١ – بيروت سنة ١٩٨٦.

(٤) العقد الفريد /جـ٦ ، صـ١٢٥.

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

فقال هذا من كلام النبوة (١).

١٤- روي يزيد بن عمرو الخزاعي عن أبيه عن جده قال : دخلت علي النبي صلي الله عليه وسلم ومنشد ينشده قول سويد بن عامر المصطلقي :

لا تأمنن وإن أمسيت في حرم إن المنايا بجنبي كل إنسان

فاسلك طريقك تمشي غير مختشع حتى تلاقي الذي مني لك المانسي

فقال صلي الله عليه وسلم :" لو أدرك هذا الإسلام لأسلم (٢).

١٥ - جاء ضرار بن الأزور إلي النبي صلي الله عليه وسلم يقول :أأنشدك يا رسول الله ، قال نعم فأنشده :

تركت القيان وعزف القيان وأدمنت تصلية وابتهالا

وكر المشقر في حومة وشني علي المشركين القتالا

فيا ربي لا أغبنن صفقتي فقد بعت مالي وأهلي بدالا

فقال النبي صلي الله عليه وسلم : ربح البيع ، ربح البيع . (٣) وقيل" ما غنبت صفقتك يا ضرار".

١٦- حدث زياد بن طارق الجشمي قال : حدثني أبو جرول الجشمي وكان رئيس قومه قال : أسرنا النبي صلي الله عليه وسلم يوم حنين فبينما هو يميز الرجال من النساء إذ وثبت بين يديه وأنشدته .

---

(١) العقد الفريد / جـ٦، صـ١٢٠ .

(٢) العقد الفريد / جـ٦ ، صـ١٢٥.

(٣) العقد الفريد / جـ٦ ، صـ١٢٥ ، وانظر أسد الغابة ،ابن الأثير ، جـ٣ ، صـ٥٢ وفي رواية ابن الأثير .

خلعت القداح وعزف القيا ن والخمر أشربها والثمالا

وكري المحبر في غمرة وجهدي علي المسلمين القتالا

فيارب لا أغبنن صفقتي فقد بعت أهل ومالي بدالا

فقال النبي (ربح البيع ، ما غبت صفقتك ياضرار "

امننْ علينا رسول الله في حرم فإنك المرء نرجوه وننتظر
امنن علي نسوة قد كنت ترضعها يا أرجح الناس حلما حين يختبر
انا لنشكر للنعي إذا كفرت وعندنا بعد هذا اليوم مدخر

فذكرته حين نشأ في هوازن وأرضعوه ؛ فقال عليه الصلاة والسلام : أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لله ولكم ، فقالت الأنصار : وما كان لنا فهو لله ولرسوله فردت الأنصار ما كان في أيديها من الذراري والأموال (١)

١٧- روي أن الشعراء كانوا ينشدون الشعر بين يديه صلي الله عليه وسلم في كثير من اللحظات ، ومن ذلك أنه حينما دخل عليه السلام مكة معتمرا عمرة القضاء في السنة السابعة للهجرة قدم عبد الله بن رواحة فأخذ بخطام ناقته مرتجزا بأبيات منها .

خلوا بني الكفار عن سبيله خلوا فكل الخير في رسوله
يا رب إني مؤمن بقيله أعرف حق الله في قبوله (٢)

١٨- يروي لنا التاريخ أن الذي هاج فتح مكة هو أن عمرو بن سالم الخزاعي خرج من مكة حتى قدم علي رسول الله صلي الله عليه وسلم في المدينة، وكانت خزاعة في حلف النبي صلي الله عليه وسلم ، وقد نقضت قريش العهد الذي بينها وبين الرسول صلي الله عليه وسلم باعتدائها علي خزاعة وأصابت منهم مقتلا كثيرا فقال عمرو بن سالم يستصرخ الرسول صلي الله عليه وسلم ويذكره بحلفه مع خزاعة :

يا رب إني ناشد محمدا حلف أبينا وأبيه الأتلدا
إن قريشا أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكدا

---

(١) العقد الفريد / جـ٦ – صـ١٢٩ .

(٢) ديوان عبد الله بن رواحة / تحقيق د. وليد قصاب / صـ ١٤٤ / ط دار الضياء / عمان / ط ثانية سنة ١٩٨٨وانظر / سيرة ابن هشام / ق ٢ – جـ ٣ / صـ ٣٧١ .

– وقد قال سيدنا عمر : يا بن رواحة ، في حرم الله وبين يدي رسول الله صلي الله عليه وسلم تقول الشعر فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم "خلِّ عنه يا عمر ، فلهو أسرع فيهم من نضح النبل " انظر :الترمذي باب الأدب " وانظر القرطبي جـ ١٣، صـ ١٥١.

فانصر هداك الله نصرا أعتدا وادع عباد الله يأتوا مددا

هم بيتونا بالوتير هجدا وقتلونا ركعا وسجدا (١)

فلما سمع النبي صلي الله عليه وسلم هذا الشعر دمعت عيناه وقال : نصرت يا عمرو .

١٩- قال صلي الله عليه وسلم : إن أصدق بيت قالته العرب هو قول لبيد :

ألا كل شئ ماخلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل(٢)

٢٠- كان صلي الله عليه وسلم يتدخل في تعديل بعض الكلمات في الشعر ليساير الشعر روح الإسلام ، ومن ذلك ما روي من أن كعب بن زهير حينما قال البيت المشهور .

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الهند مسلول

قال له الرسول " من سيوف الله "فعدل كعب هذا البيت وقال :

مهند من سيوف الله مسلول(٣)

٢١- روي عنه صلي الله عليه وسلم أن اسيد بن أبي أناس جاءه يقول وأنت الفتي تهدي معدا لدينها....

فقال له النبي صلي الله عليه وسلم : بل الله يهديها " فقال أسيد :

وأنت الفتي تهدي معدا لدينا بل الله يهديها وقال لك أرشد

٢٢- كان صلي الله عليه وسلم يتأثر بالشعر أيما تأثر، والدليل علي ذلك أنه لما نزل الأثيل وهو موضع قرب المدينة أمر عليا فضرب عنق النضر بن الحارث بن كلدة بن علقمة بن عبد مناف صبرا ، فقالت له قتيلة بنت النضر ابن الحارث وهو يطوف بالكعبة .

يا راكبا إن الأثيل مظنة من صبح خامسة وأنت موفق

---

(١) العقد الفريد / جـ ٦ ، صـ١٣٠ وانظر سيرة ابن هشام ، ق ٢ ، جـ ٣ ، صـ ٣٩٤ .

(٢) صحيح مسلم / جـ٤ ، صـ ١٧٦٨ (وفي رواية أشعر كلمة تكلمت بها العرب وفي رواية أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد" .

(٣) انظر شرح ديوان كعب بن زهير /صـ٢٣ / ط ثالثة – دار الكتب المصرية سنه٢٠٠٢ – صنعة أبي سعيد السكر.

أبلغ بها ميتا بأن قصيدة ما إن تزال بها النجائب تخفق
مني إليك وعبرة مسفوحة جادت لماتحها وأخرى تخنق
هل يسمعني النضر إن ناديته أم كيف يسمع ميت لا ينطق
أمحمد ها أنت نجل نجيبة في قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما من الفتي وهو المغيظ المحنق
فالنضر أقرب من قتلت قرابة وأحقهم إن كان عتق يعتق
ظلت سيوف بني أبيه تنوشه لله أرحام هناك تمزق

فتأثر الرسول صلي الله عليه وسلم بهذا الشعر أيما تأثر ، وقال لو بلغني هذا قبل قتله ما قتلته (١)

٢٣- ومما يدلنا علي تأثره بالشعر واهتزازه له ، وانفعاله به ما روي من أنه كان قد أهدر دم كعب بن زهير ، فلما جاء كعب تائبا نادما منشدا قصيدته المشهورة "بانت سعاد " والتي مدح فيها النبي صلي الله عليه وسلم ، عفا عنه النبي وألقي عليه بردته الشريفة ثوابا له .

٢٤- روي عن الرسول صلي الله عليه وسلم أنه جلس في مجلس ليس فيه إلا خزرجي فاستنشدهم قصيدة قيس بن الخطيم (وهو شاعر من الأوس) يعني القصيدة التي مطلعها :

أتعرف رسما كاطراد المذاهب لعمرة وحشا غير موقف راكب

فأنشده بعضهم إياها حتى بلغ إلي قوله :

أجالدهم يوم الحديقة حاسرا كأن يدي بالسيف مخراق لاعب

فالتفت إليهم رسول الله صلي الله عليه وسلم فقال : هل كان كما ذكر ؟ فشهد له ثابت بن قيس بن شماس وقال له : والذي بعثك بالحق يا رسول الله لقد خرج إلينا يوم سابع عرسه فجالدنا كما ذكر.

---

(١) العقد الفريد ، جـ٦ ، ص١٢٩،١٣٨ .

والبيان والتبين جـ٤، صـ٤٤، تحقيق عبد السلام هارون ، ط الذخائر سنة ٢٠٠٣م .

فهذا مجلس أدبي شارك فيه الرسول صلي الله عليه وسلم بالسماع والتذوق ، فلو كانت مكانة الشعر قد قلت ما وجدت أمثال تلك المجالس التي كان الرسول عليه السلام يشارك فيها .

٢٥- لا أدل علي علو مكانة الشعر من احتفاء الرسول بالشعراء وحبه إياهم فلقد روي أن المقوقس قد أهدي للرسول صلي الله عليه وسلم بعض الهدايا منها : مارية القبطية و جارية أخري هي أخت مارية "سيرين" فتزوج الرسول صلي الله عليه وسلم مارية وأهدي الجارية الثانية لشاعره المشهور حسان بن ثابت دلالة علي اعتزازه بالشعر واحتفائه بالشعراء وحبه لهم ودلالة علي ارتفاع مكانة الشعراء في عهده .

٢٦- كان الرسول صلي الله عليه وسلم يستمع إلي الخنساء ويسألها أن تزيده من شعرها، ويقول لها : إيه يا خناس . (١)

٢٧-كانت القبائل تفد عليه صلي الله عليه وسلم لتعلن إسلامها وفي هذه الوفود شعراء يتحدثون باسم قبائلهم وكان الرسول يستمع إليهم وذلك مثلما حدث مع وفد تميم الذي جاء ومعه شاعرهم الزبرقان بن بدر الذي وقف يقول :

نحن الكرام فلا حى يعادلنا منا الملوك وفينا تقسم الربع
إن أبينا ولم يأب لنا أحد وإنا كذلك عند الفخر نرتفع

فبعث رسول الله صلي الله عليه وسلم إلي حسان ولم يكن بالمجلس ، فلما سمع قول هذا الشاعر قال له النبي عليه السلام قم يا حسان فأجب الرجل فقال مرتجلا : قصيدته التي منها هذه الأبيات .

إن الذوائب من فهر وإخواتهم قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضي بها كل من كانت سريرته تقوي الإله وبالأمر الذي شرعوا
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
إن كان في الناس سباقون بعدهم فكل سبق لأدني سبقهم تبع

ولما انتهي من القصيدة قال الأقرع بن حابس رئيس الوفد " لشاعره - يعني حسان شاعر الرسول – أشعر من شاعرنا .

(١) طبقات فحول الشعراء ، ابن سلام الجمحي ،جـ١ صـ ٢٢٨.

٢٨- قول النبي صلي الله عليه وسلم لكعب بن مالك " إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه والذي نفسى بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل "

٢٩- عندما أنشد سيدنا حسان قصيدته التي رد بها علي أبي سفيان بن الحارث والتي مطلعها .

عفت ذات الأصابع فالجواء إلي عذراء منزلها خلاء(١)

دعا له الرسول صلي الله عليه وسلم بالجنة مرتين ، وعندما وصل حسان إلي قوله :

هجوت محمدا فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء

قال صلي الله عليه وسلم " جزاؤك عند الله الجنة يا حسان " ولما وصل حسان إلي قوله .

فإن أبي ووالده وعرضى لعرض محمد منكم وقاء

قال صلي الله عليه وسلم " وقاك الله حر النار "(٢)

٣٠-كان صلي الله عليه وسلم يعجب بقول عنترة

ولقد أبيت علي الطوي وأظله حتى أنال به كريم المأكل

وقد جسد صلي الله عليه وسلم إعجابه بعنترة فقال " ماوصف لي أعرابي قط فأجببت أن أراه إلا عنتره (٣)

٣١- قوله صلي الله عليه وسلم " لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين (٤)

٣٢- استماع الرسول صلى الله عليه وسلم إلى كعب بن زهير وهو ينشد قصيدته " بانت سعاد "

٣٣- جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ينشده قول سحيم عبد بني الحسحاس.

الحمد لله حمدا لا انقطاع له فليس إحسانه عنا بمقطوع

---

(١) ديوان حسان ، صـ ٧١ .

(٢) العمدة ، جـ١ ، صـ ٣٩ .

(٣) الأغاني ، جـ ٧ ، صـ ١٤٤، .

(٤) العمدة /جـ١ ، صـ ٣٠ .

فقال عليه السلام :" أحسن وصدق وإن الله ليشكر مثل هذا "(١)

٣٤ - التفت مرة – صلى الله عليه وسلم – إلى حسان قائلا هات ما قلت في وفي أبي بكر فقال حسان :

إذ تذكرت شجوا من أخي ثقة فاذكر أخاك أبابكر بما فعلا

فقال صلى الله عليه وسلم : صدقت يا حسان . دعوا لي صاحبي(٢)وفي رواية : صدقت يا حسان هو كما قلت .

٣٥ - عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : كان رسول الله صلى عليه وسلم يخصف نعله وكنت أغزل فنظرت إليه فجعل جبينه يعرق وجعل عرقه يتولد نورا فبهت فنظر إلي فقال : مالك بهت ؟ فقلت يا رسول الله نظرت إليك فجعل جبينك يعرق وجعل عرقك يتولد نورا فلو رآك أبو كبير الهذلي لعلم أنك أحق بشعره قال وما يقول يا عائشة أبو كبير الهذلي فقالت يقول :

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل

قالت فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان في يده وقام إلي فقبل ما بين عيني وقال : جزاك الله يا عائشة خيرا ما سررت مني كسروري منك.٣

٣٦- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرت كعب بن مالك فقال وأحسن وأمرت عبد الله بن رواحة فقال وأحسن وأمرت حسان بن ثابت فشفى واشتفى .

٣٧- كان يرتجز بأبيات عامر بن الأكوع أثناء خروجه إلى خيبر في السنة السابعة للهجرة وهي الأبيات التي يقول فيها :

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا(٤)

---

(١) الإصابة ، جـ ٢ ، صـ ١٠٩.

(٢) ديوان حسان ، صـ٢١١، صـ٣٩٥ ، وانظر مجمع الزوائد / كتاب الثاقب جـ ٩ ، صـ٤٣.

(١) تهذيب حلية الأولياء / أبو نعيم الأصفهاني تهذيب د. أحمد طه وهبه دار الأندلس الجديدة / مصر / ط أولي سنة ٢٠٠٤.

(٤) سيرة ابن هشام ، جـ ٢، صـ ٣٢٨.

٣٨- كان كثيرا ما يطلب صلى الله عليه وسلم سماع الشعر أثناء رحلاته ليهون به السفر ومن ذلك أنه سأل عن حسان في إحدى ليالي سفره فقال حسان لبيك يا رسول الله وسعديك فقال له النبي " احدُ" فجعل ينشد والنبي يصغي إليه فمازال يستمع إليه وهو سائق راحلته حتى فرغ من نشيده(١) .

٣٩- يجب ألا ننسى أن النبي صلى الله عليه وسلم قد استقبله بنو النجار يوم وصل المدينة مهاجرا إليها بقولهم.

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

٤٠- حينما جاءه ابن حبيب ينشده قول سحيم عبد بني الحسحاس

الحمد لله حمدا لا انقطاع له فليس إحسانه عنا بمقطوع

قال صلى الله عليه وسلم." أحسن وصدق وإن الله ليشكر مثل هذا ، وإن سدد وقارب إنه لمن أهل الجنة "٢

٤١ – سمع النبي صلى الله عليه وسلم كعب بن مالك يقول

ألا هل أتي غسان عنا ودونهم من الأرض خرق غوله متنعنع

مجالدنا عن جذمنا كل فخمة مذربة فيها القوانس تلمع

فقال لا تقل : عن جذمنا وقل عن ديننا ، فسر كعب وعدل البيت وافتخر بذلك قائلا:ما أعان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدا في شعره غيري .٣ ويلاحظ أنه صلى الله عليه وسلم قد أعان كعب بن زهير أيضا في قصيدته " باتت سعاد ".

٤٢- امتدح الرسول صلى الله عليه وسلم ابن رواحة لعفة لسانه فقال " إن أخاكم لا يقول الرفث "

٤٣- روى حريم بن أوس الطائي قال : قدمت علي رسول الله منصرفا من تبوك فسمعت العباس عمه يقول : يا رسول الله إني أريد أن امتدحك فقال صلي الله عليه وسلم قل : لا يفضفض الله فاك فأنشأ يقول .

---

(١) الأغاني ، جـ٤،صـ١٤٣.

(١) انظر الإصابة / ابن حجر / جـ ٢ ، صـ ١٠٩ .

(٢) ابن هشام / جـ ٢ ، صـ ١٣٢– ١٣٦ .

من قبلها طبت في الظلال وفي مستودع حيث يحصف الورق[1]

وبعد :

فلقد كان الرسول صلي الله عليه وسلم يتذوق الكلمة ويعرف للشعر قيمته وتأثيره ، وكثيرا ما كان يستنشد الرواة الشعر ويستمع إلي ما يروون ويسهم في نقد بعض معانيه ويقيم ما يشبه المجالس الأدبية التي يشارك فيها ويقبل علي الشعر راغبا في سماعه ، ويسأل أصحابه عنه ، ويدعو لشعرائه بالتوفيق ويبدي إعجابه ويرشد إلي مواطن الخير فيه ، ويرشد إلي مواطن الخلل فيه فيقومه ، وكان يتخذه وسيله إعلامية، وحربا نفسيه في بعض الأحيان وكان يتأثر بالشعر المعبر عن مشاعر إنسانية مهذبة وعواطف راقية سامية ويتخذه وسيله للجهاد وينفعل ببعضه أشد الانفعال ويقدره أعظم التقدير ويعتز به ويحتفي أيما احتفاء ويقرب الشعراء إليه ويرفع من منزلتهم ويرتضي ما ارتضاه القرآن الكريم ويقوم الشعراء . ويوجههم ، وله لمحات نقدية رائعة ويستمع إلي الرجال والنساء علي حد سواء ، وفي ذلك كله دلالة صادقة علي علو منزلة الشعر في عهده صلي الله عليه وسلم .

ب- موقف الصحابة من الشعر :

لم يكن موقف الصحابة من الشعر إلا كموقف الرسول – صلي الله عليه وسلم – منه ، ولم يكن شأن الشعر في عهد الخلفاء أقل منه في عهد النبي عليه السلام ، فلقد كانوا يشجعون الشعراء ويحثونهم علي قول الشعر ويستمعون إليهم ويتذوقون الشعر ويتأثرون به أيما تأثر ويشاركون في نظمه .

وللدلالة علي علو مكانة الشعر في عصر الخلفاء الراشدين يمكن أن نسوق الأدلة الآتية:

١- حكي جابر بن سمرة قال : جالست الرسول صلي الله عليه وسلم أكثر من مائة مرة فكان أصحابه يتناشدون الأشعار في المسجد .

[1] - الاستيعاب / جـ ٢ ، صـ ٣٥٤ .

٢-كتب عمر بن الخطاب إلي أبي موسى الأشعري يقول :" مر من قبلك بتعلم الشعر فإنه يدل علي معالي الأخلاق وصواب الرأي ومعرفة الأنساب"

٣- روي أنس بن مالك قال : قدم علينا رسول الله صلي الله عليه وسلم وما في الأنصار بيت إلا وهو يقول الشعر (١)

٤- قال عمر بن الخطاب للوفد الذي قدم عليه من غطفان : من الذي يقول

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب ؟

قالوا : نابغة بني ذبيان

قال : فمن ذا الذي يقول هذا الشعر ؟

فألفيت الأمانة لم أخنها كذلك كان نوح لا يخون

قالوا : هو النابغة

قال : هذا أشعر شعرائكم (٢) أى أشعر شعراء بني غطفان

٥- قال عمر بن الخطاب لابن عباس أنشدني لأشعر الناس الذي لا يعاظل بين القوافي (أى لا يعقد ولا يوالي بعضه فوق بعض ولا يتتبع حوشي الكلام ، قال من ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال زهير بن أبي سلمي(٣) فلم يزل ينشده من شعره الكثير وهو القائل

وإن أشعر بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقا (٤)

٦- عقد عمر بن الخطاب ذات ليلة مجلسا لابن عباس طالبا منه أن ينشده لشاعر الشعراء فقال ابن عباس : ومن هو ؟ قال الذي يقول :

ولو أن حمدا يخلد الناس أخلدوا ولكن حمد الناس ليس بمخلد

---

(١) العقد الفريد ، جـ ٦ ، صـ ١٣٤.

(٢) العقد الفريد ، جـ٦ ، صـ ١١٩ وانظر الشعر والشعراء ، جـ ١ ، صـ ١٥٨ – ١٥٩ ، وانظر ديوان النابغة صـ ١٢٦ تحقيق وشرح كرم البستاني / دار بيروت للطباعة سنة ١٩٨٠.

(٣) العقد الفريد ، جـ ٦ ، صـ ١١٩ .

(٤) العقد الفريد ، جـ ٦ ، صـ ١٢٠ .

قلت: ذاك زهير، قال فذاك شاعر الشعراء ، قلت وبم كان شاعر الشعراء ؟ قال لأنه كان لا يعاظل في الكلام وكان يتجنب وحشى الشعر ولم يمدح أحدا إلا بما فيه (١)

٧- قال عمر بن الخطاب : الشعر جزل من كلام العرب يسكن به الغيظ وتطفأ به الثائرة ويتبلغ به القوم في ناديهم ويعطي به السائل (٢)

٨- لما هاجر النبي صلي الله عليه وسلم إلي المدينة وهاجر أصحابه مسهم وباء المدينة فمرض أبو بكر وكان إذا أخذته الحمي يقول .

كل امرئ مصبح في أهله والموت أدني من شراك نعله(٣)

٩- روي ابن سلام عن ابن جعدية قوله : ما أبرم عمر بن الخطاب أمرا إلا تمثل فيه ببيت من الشعر" (٤)

١٠- سئل مالك بن أنس عن أبيه من أين شاطر عمر بن الخطاب عماله ؟ فقال أموال كثيرة ظهرت عليهم وإن شاعرا كتب إليه يقول :

نحج إذا حجوا ونغرو إذا غزوا فأني لهم وفر ولسنا بذي وفر
إذا التاجر الهدي جاء بفارة من المسك راحت في مفارقهم تجري ٍ
فدونك مال الله حيث وجدته سيرضون إن شاطرتهم منك بالشطر

فشاطرهم عمر أموالهم(٥)

١١- كان سيدنا عمر قد حبس الحطيئة بسبب كثرة هجائه ، ولكنه لما سمع قوله :

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ زغب الحواصل لاماء ولا شجر
ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة فاغفر عليك سلام الله يا عمر

---

(١) الأغاني ، جـ ٩ ، صـ ١٤٠ .

(٢) العقد الفريد ،جـ ٦ ، صـ ١٣٠ .

(٣) العقد الفريد ، جـ ٦ ، صـ١٣٠، وانظر ديوان أبي بكر ، صـ ٥٢ .

(٤) بهجة المجالس ، جـ١، صـ ٣٧.

(٥) العقد الفريد ، جـ ٦ ، صـ ١٣١

تأثر تأثرا شديدا وأفرج عنه بعد أن أخذ العهد عليه بالكف عن الهجاء وأعطاه ثلاثة ألاف درهم مشتريا بذلك منه أعراض المسلمين(١)

١٢ – روي عن سيدنا عمر قوله من خير صناعات العرب : الأبيات يقدمها الرجل بين يدي حاجته ، يستنزل بها الكريم ويستعطف بها اللئيم (٢).

١٣- لم تقف مكانة الشعر لدى الصحابة والخلفاء الراشدين عند حد التمثل بالشعر والتأثر به بل كان منهم من هو شاعر ينظم البيت والبيتين، والمقطوعة والمقطوعتين والقصيدة والقصيدتين بل الديوان برمته مثل : حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، ومن الخلفاء الذين ذكر لهم شعر سيدنا أبو بكر الصديق ومن شعره قوله :

أيا عين جودي ولا تسأمي ... وحق البكاء علي السيد
فصلي المليك إله العباد ... ورب البلاد علي أحمد
فكيف الإقامة بعد الحبيـ ... ـب بين المحافل والمشهد
فليت الممات لنا كلنا ... وكنا جميعا مع المهتدي (٣).

ومن شعر عمر قوله يوم فتح مكة

ألم تر أن الله أظهر دينه ... علي كل دين قبل ذلك حائد
وأمكنه من أهل مكة بعدما ... تداعوا إلي أمر من الغي فاسد
فأمسى رسول الله قد عز نصره ... وأمسى عداه من قتيل وشارد ٤

ومن شعر علي قوله :

أفاطم قد أبليت في نصر أحمد ... ومرضاة رب بالعباد رحيم
أريد ثواب الله لا شئ غيره ... ورضوانه في جنة ونعيم (٤).

---

(١) الأغاني ، جـ ٢ ، صـ ٥٤ .

(٢) البيان والتبين ، جـ ٢ ، صـ ١٠٢ .

(٣) ديوان أبي بكر ، صـ ٣٢ .

(٤) زهر الآداب / ج١/ ص٧١ .

٢ ديوان الإمام علي / جمع وترتيب : عبد العزيز الكرم صـ١١٥ / ط دار العلم / بيروت .

ومن شعره أيضاً قوله :

نصرنا رسول الله لما تدابروا وثاب إليه المسلمون ذوو الحجى

ضربنا غواة الناس عنه تكرما ولما يروا قصد السبيل ولا الهدي (١).

١٤- لم يكن الرجال من الصحابة فقط هم الشعراء بل شاركت المرأة المسلمة في ميدان الشعر ، ومن النساء الشواعر الخنساء ومنهن صفية بنت عبد المطلب، ومن شعرها في رثاء النبي قولها :

ألا يا رسول الله كنت رجاءنا وكنت بنا برا ولم تك جافيا

وكنت رحيما هاديا ومعلما ليبك عليك اليوم من كان باكيا (٢).

ومنهن عاتكة بنت عبد المطلب ومن شعرها يوم بدر قولها :

فهلا صبرتم للنبي محمد ببدر من يغش الوغى حق صابر

ولم ترجعوا عن مرهفات كأنها حريق بأيدي المؤمنين بواتر

ولم تصبروا للبيض حتى أخذتم قليلا بأيدي المؤمنين مساعر

١٥- الخنساء كانت شاعرة ولها ديوان من الشعر.

١٦- صفية بنت عبد المطلب لها من الشعر ما ألف ديوانا بأكمله.

١٧- للسيدة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم شعر ومن ذلك قولها في رثاء النبي صلى الله عليه وسلم :

قل للمغيب تحت أطباق الثرى إن كنت تسمع صرختي وندائيا

صُبت علي مصائب لوانها صبت علي الأيام عدن لياليا(٣)

ويلاحظ أن عدد الشواعر فى صدر الإسلام قد بلغ خمسا و ستين شاعرة .٤

وبعد :

فإن الشعر في صدر الإسلام لم يكن قليلا ولا ضعيفا ولم تتراجع مكانته ولم تهتز بل ارتفعت وسمت واتجه به الإسلام الاتجاه الصحيح ووجهه الوجهه السليمة وكل

---

(١) ديوان الأمام علي /صـ١٠.

(٢) شعر صفية بنت عبد المطلب / د. محمد أبو المجد علي / صـ١٥١ / ط الآداب سنة٢٠٠٢.

(٣) انظر شاعرات عصر الإسلام الأول / نبيل خالد أبو علي / ط دار الحرم الشريف ،سنة٢٠٠١.

(٢) المرجع السابق .

الأدلة التي سقناها تبرهن على علو تلك المكانة ، ولبيان وفرة الشعر في تلك الفترة يمكن أن نشير إلى شيئين مهمين في نهاية الموضوع هما.

أولا : أن هذه الفترة قصيرة إذا قيست بالفترة السابقة نعني العصر الجاهلي – فهي فترة لا تتجاوز الخمسين سنة بينما يمتد العصر الجاهلي إلى نحو قرنين من الزمان ، ومعنى ذلك أن فترة صدر الإسلام لا تزيد – من الناحية الزمانية- على ربع العصر الجاهلي ومعنى ذلك أننا بعملية حسابية نجد أن كل أربعة شعراء جاهليين يقابلهم شاعر إسلامي واحد ورغم ذلك فإننا نجد النسبة تزيد عن ذلك بكثير.

ثانيا : رغم قصر هذه الفترة وانشغال المسلمين بالحروب والفتوحات والدعوة ورغم ما هو معروف عن شعر الفتوحات من كثرة الضياع فلقد وصل إلينا من هذه الفترة أكثر من عشرين ديوانا ما بين مطبوع ومخطوط ومن هذه الدواوين عن سبيل المثال : ديوان أبي بكر ، وديوان علي بن أبي طالب ، وديوان حسان ، وديوان كعب بن مالك ، وديوان عبد الله بن رواحة، وديوان النابغة الجعدي ، وديوان خفاف بن ندبة، وديوان العباس بن مرداس ، وديوان ضرار بن الخطاب ، وديوان كعب بن زهير ، وشعر صفية بنت عبد المطلب، ، وديوان الشماخ بن ضرار ، والمزرد بن ضرار ، والحطية ، وأبي محجن الثقفي (١). ، ديوان حميد بن ثور ، ديوان لبيد ،

ديوان تميم بن مقبل ، ديوان سحيم بن وثيل ، ديوان عمرو بن معدي كرب هذا عدا المقطوعات المتناثرة في كتب الأدب والتاريخ والتي تبلغ أكثر من ست عشرة وأربعمائة مقطوعة .

ومن ثم فإننا في نهاية الحديث عن هذا الأمر يجب أن نعلن أن المقولة التي ادعاها المدعون بأن الشعر قد قلت مكانته وضعفت منزلته في صدر الإسلام مقولة باطلة

---

(١) انظر موسوعة شعراء صدر الإسلام والعصر الأموي : عبد عون الروضان التي أحصي فيها ما يقل عن (١٤٠٩) تسعة وأربعمائة وألف شاعر في هذين العصرين والموسوعة ط ١– دار أسامة – عمان سنة ٢٠٠١ .

مردها إلي فهم سيئ لموقف الإسلام من الشعر وإلي عدم تبصر قائليها بموقف الرسول صلي الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم من ذلك الفن الجميل ، كما أنهم لم ينتبهوا إلي أن الشعر الإسلامي في معظمه أليف اللفظ قريب المعنى سهل العبارة رشيق الأسلوب ليس فيه من فخامة التركيب والديباجة البدوية وغرابة اللغة مما حدا بأصحاب اللغة ومتتبعي الشواهد إلي نبذه وعدم الاهتمام به لأنهم كانوا يبحثون عن الشعر العويص المعني الغريب اللفظ المملوء بداوة وجزالة وفخامة فلما وجد أصحاب هذه المقولة عدم اهتمام أصحاب اللغة بذلك الشعر زعموا ذلك الزعم .

والحق أن في كل ما أوردناه رد مفحم علي مقولتهم وتفنيد واضح لمزاعمهم وعودة صحيحة إلي فهم الشعر في صدر الإسلام ومعرفة مكانته العالية خاصة عند النبي صلى الله عليه و سلم وصحبه الكرام .

العصر الأموي

والمتغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية

تنتسب الدولة الأموية إلي أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وقد كان أمية هذا ينافس عمه هاشم بن عبد مناف في الشرف والرياسة والسيادة في العصر الجاهلي وحينما أتي الإسلام وقف بنو أمية موقف العداء الشديد من الرسول صلي الله عليه وسلم ؛ ولذا كانوا من المتأخرين في دخول الإسلام وبالرغم من ذلك فقد تطلعوا إلي الخلافة منذ عهدها الباكر ولاح لهم الأمل حينما أسند عمر بن الخطاب الشورى لستة من الصحابة منهم عثمان ابن عفان، وهنا راحوا يؤيدون عثمان علانية ويرشحونه جهارا، ولما فاز عثمان بالخلافة اتجه الأمويون إلي تأسيس خلافة لهم منذ ذلك الحين إذ حاول معاوية بن أبي سفيان أن يقيم في الشام وأن يجهز تلك المنطقة لتكون المستقبل الذي يبني فيه سلطانه ، وقد تم له ما أراد فأسس الدولة الأموية بعد أن دارت حرب صفين واستشهد الإمام علي رضي الله عنه وتنازل له الحسن بن علي عن الخلافة عام واحد وأربعين للهجرة وهو العام الذي عرف في التاريخ الإسلامي بعام الجماعة.

الحالة السياسية

يمتد العصر الأموي من سنة إحدى وأربعين للهجرة إلي سنة اثنتين وثلاثين ومائة هجرية، وفي خلال هذه الفترة امتدت الفتوحات الإسلامية امتداد كبيرا حتى وصل المسلمون إلي بلاد السند شرقا، والأندلس غربا، والقسطنطينية شمالا حتى إن العباسيين علي جلالة قدرهم وعظم شأنهم وطول فترة حكمهم لم يتقدموا شيئا يذكر بالإضافة إلى ما وصل إليه الأمويون من فتوحات .

وعلي الرغم من ذلك فإن الحالة السياسية الداخلية أيام الأمويين لم تكن مستقرة تماما فلقد كانت مضطربة اضطرابا كبيرا حيث نظر الكثيرون إلى بني أمية علي أنهم قد اغتصبوا الخلافة واستبدوا بها ؛ ولذا كان السخط منتشرا

مستبدا بالنفوس خاصة في العراق . والحجاز حيث الأحزاب السياسية والدينية (شيعة، خوارج ، زبيرون وغيرهم) التي هبت بثورات عارمة كثيرة أقلقت الأمويين ونغصت عليهم ملكهم .

لقد كانت الخلافة هي المحور الذي تجمعت حوله تلك الأحزاب وكان السؤال المطروح علي الساحة السياسية هو : من أحق الناس بالخلافة ؟

الحالة الاقتصادية والاجتماعية

كان للفتوحات التي تمت في عصر بني أمية أثر كبير علي الناحية الاقتصادية والاجتماعية، فلقد تدفقت الأموال علي الخزانة الأموية وصبت في حجور الخلفاء صبا، وكثرت الضرائب و الإقطاعات وعمل الولاة علي جمع الخراج بكل سبيل.

وقد انعكس ذلك كله علي المجتمع عامة وعلي الطبقة الحاكمة خاصة ومن انخرط في سلكها ولف في ركابها .

واتجه الأمويون إلي سياسية خطيرة جدا وهي سياسة إغداق الأموال علي أهل الحجاز وخاصة الهاشميين مما أدى إلى وجود طبقة عاطلة لا تجد ما يشغل وقت فراغها غير أنواع من اللهو وضروب من العبث ، كما اتجه الأمويون أيضا إلي إغداق الأموال علي الشعراء مما جعل هؤلاء يخطبون ودهم ويتعلقون بمديحهم .

وعلي الجانب الآخر عانى كثير ممن يسكنون الريف ويعيشون في البادية الفاقة والعوز مما دفع ببعضهم إلى الهجرة إلى المدن وسكناها بحثا عن لقمة العيش .

وأمام تلك الخطوب الجسام وأمام تيار اللهو والعبث والمجون، وجدت طبقة من الزهاد والعباد يندفعون في تيار الزهد والنسك وعلي رأسهم الحسن البصري.

النقــائــض

في العصــر الأمــوي

التعريف :

النقائض جمع نقيضة ، والنقيضة لغة مشتقة من نقض إذا هدم (١)ويقول صاحب تاريخ النقائض في الشعر العربي إن هذا المعني اللغوي له طوران أحدهما حسي يتمثل في نقض البناء أو الحبل .....والثاني معنوي يبدو في نقض العهود والمواثيق وفي نقض القول والإتيان بما يغايره . (٢)

وأما في الاصطلاح فإن النقيضة هي قصيدة يرد بها شاعر علي شاعر ابتدره بالهجاء والفخر ينقض معانيه معني معني ويفخر عليه ويصمه بما يشينه ويشين قومه مستخدما الوزن والقافية اللذين استخدمها الشاعر الأول .

ومعني ذلك أنه " لابد من توافر ثلاث وحدات في القصيدتين حتي يقال إنهما نقيضتان : وحدة الموضوع ، ووحدة الوزن ،ووحدة القافية (٣) و إن اختلفت حركة حرف الروي أحيانا .

ومن ذلك علي سبيل المثال قول الفرزدق.

إن الذي سمك السماء بني لنا بيتا دعائمه أعزو أطول٤

فيرد عليه جرير قائلا :

إن الذي سمك السماء بنى لنا عزا علاك فماله من منقل(١)

---

(١) انظر مادة " نقض " في لسان العرب إذ يقول ابن منظور " النقض إفساد ما أبرمت من عقد أو بناء وفي الصحاح : النقض نقض البناء والحبل والعهد " لسان العرب : مادة نقض .

(٢) تاريخ النقائض في الشعر العربي / أحمد الشايب/ صـ ٣/ ط ثالثة نهضة مصر سنة ١٩٩٨.

(٣) في الشعر الأموى د. يوسف خليف ، صـ ١٣٦ ط مكتبة غريب سنة ١٩٩١ .

(٤) ديوان الفرزدق / تحقيق كرم البستانى / جـ ٢ ، صـ ١٥٥ ، و انظر كتاب تقائض جرير و الفرزدق / أبو عبيدة معمر بن المثنى / اعتناء بيفان ، جـ ١ ، صـ ١٨٢ .

فالنقيضتان من بحر الكامل وقافيتها لامية ولكن حرف الراء في الأولى مضموم وفي الثانية مكسور .

و مثال ذلك أيضا قول الراعى النميرى :

رأيت الجحش جحش بنى كليب تيمم حوض دجلة ثم هابا [٢]

الذي يرد عليه جرير قائلا :

أقلى اللوم عاذل و العتابا و قولي إن أصبت لقد أصابا[٣]

والحق أن النقائض الأموية ما هي إلا مباريات شعبية ومهاترات شعرية في التفاخر والتهاجي وقعت بين ثلاثة من فحول الشعر في العصر الأموي هم جرير والفرزدق والأخطل ومن انضم إلى تلك الحلبة مثل الراعي النميري والبعيث وغيرهما .

وقد شمر كل عن ساعده وراش سهامه لصاحبه ليقذعه بمر الهجاء وليقلل من شأن خصمه وشأن قبيلة الخصم وفي الوقت نفسه يعلي من قدر نفسه وقدر قبيلته ، وقد استمرت تلك المهاترات ما يقرب من نصف قرن من الزمان .

ولعل أهم أركان النقائض التي ترتكز عليها هي :

١- المعاصرة أو التزامن : بمعني أن يكون الشاعران المتناقضان قد عاشا وتزامنا في عصر واحد ، وحقا فجرير والفرزدق والأخطل قد عاشوا في عصر واحد والتقوا في سوقي المربد والكناسة في العراق وتهاجوا وتفاخروا في آن واحد .

٢- وحدة الموضوع الذي تصاغ منه النقائض سواء أكان فخرا أم هجاء أم سياسة أم غير ذلك وإن كان الفخر والهجاء هما المحور الذي دارت عليه النقائض .

---

(١) شرح ديوان جرير / شرح وتقديم مهدي محمد ناصر / صـ ٣٣٧ / ط دار الكتب العلمية – بيروت سنة ١٩٩٢ .

(٢) ، (٣) نقائض جرير و الفرزدق / جـ ١ ،صـ ٢٣٢

٣- اتحاد النقيضتين في البحر والقافية وإن اختلفت حركة حرف الروي كما أشرنا إلي ذلك من قبل .

وبهذه الأركان أو الأسس تختلف النقائض عن فن المعارضات الشعرية في بعض الوجوه وتتفق معها في بعض الوجوه .

وقد عرف البعض المعارضات بقوله : " المعارضة أن ينظم الشاعر قصيدة علي نمط قصيدة لشاعر آخر يتفق معه في بحرها ورويها وموضوعها سواء أكان الشاعران متعاصرين أم غير متعاصرين ويجري ذلك بدافع المنافسة أو المباراة أو الرغبة في إظهار البراعة والتفوق (١).

ولعل أهم أوجه الاتفاق بين المعارضات والنقائض هو الاتحاد في الوزن والقافية وقد رأينا شيئا من تلك النقائض وأما في المعارضات فإننا يمكن أن نسوق مثالا دالا على هذا الأمر وهو قول أبي الحسن الحصري القيرواني (نوفي سنة ٤٨٨ هـ) وهو ابن خالة أبي اسحق الحصري صاحب (زهر الآداب) إذ يقول في قصيدته المشهورة " ياليل الصب " :

ياليل الصب متي غده أقيام الساعة موعده ؟
رقد السمار وأرقه أسف للبين يردده
فبكاه النجم ورق له مما يرعاه ويرصده
صنم للفتنة منتصب أهواه ولا أتعبده (٢).

وقد عارضها أكثر من ثلاثين شاعرا أشهرهم أحمد شوقي الذي يقول :

مضناك جفاه مرقده وبكاه ورحم عوده
حيران القلب معذبه مقروح الجفن مسهده (٣).

---

(١) عصر سلاطين المماليك / محمود رزق سليم / جـ ٨ ، صـ ٤٧ / ط أولي سنة ١٩٦٥ ، مكتبة الآداب .

(٢) يا ليل الصب ومعارضاتها / لأبي الحسن الحصري القيرواني / جمع ونشر محيي الدين رضا / صـ ١٠ ط رابعة سنة ١٩٥١ – البابي الحلبي.

(٣) السابق / صـ ٢٣ .

فالقصيدتان من بحر المتدراك والقافية واحدة

وإن شئنا فلننظر في كتاب " تاريخ المعارضات في الشعر العربي " (١). لنري ذلك الكم الوفير من المعارضات الشعرية .

وأما أوجه الاختلاف بينهما – النقائض والمعارضات – فمتعددة منها

١- السبب الذي أنشئت من أجله النقائض هو العداوة وإثارة العصبية والنيل من الشاعر الآخر بالفخر والهجاء والتفنيد والتكذيب وأما سبب المعارضات فهو الإعجاب إعجاب شاعر متأخر بقصيدة لشاعر متقدم . (٢).

وربما تكون " الرغبة الجامحة في إظهار البراعة والتفوق " (٣).أوقد يكون السبب هو " تأثر المعارض بغيره إلي حد الرغبة في تقليده ومحاكاته (٤). ومحاولة اللحاق بصاحب القصيدة السابقة .

٢- المعاني: تدور المعاني في النقائض حول الهجاء والفخر غالبا وبعض الأغراض الأخرى المتباينة ويختار الأول المعاني الحسنة ويترك الآخر يدافع عن نفسه وأما المعارضات فإن المعاني فيها تكاد تكون واحدة وليس فيها شيء من السباب والشتائم إذ مناطها " الجانب الفني وحسن الأداء " (٥). وربما تزيد المعاني عند اللاحق أو تنقص .

---

(١) تاريخ المعارضات في الشعر العربي / د. محمد محمود قاسم نوفل / ط أولي سنة ١٩٨٣ / دار الفرقان / بيروت .

(٢) السابق / صـ١٤.

(٣) عصر سلاطين المماليك / جـ ٨ / صـ ٤٤٨ .

– ويظهر لنا أحمد الشايب هذا السبب عندما عرف المعارضة إذا يقول والمعارضة في الشعر أن يقول شاعر قصيدة في موضوع ما من أى بحر وقافية فيأتي شاعر آخر فيعجب بهذه القصيدة لجمالها الفني وصياغتها الممتازة فيقول قصيدة من بحر الأولى وقافيتها وفي موضوعها مع انحراف عنه يسير أو كثير" تاريخ النقائض صـ ٧ .

(٤) عصر سلاطين المماليك / جـ ٨ / صـ ٤٤٨ .

(٥) تاريخ النقائض / صـ ٧ .

٣- التعاصر أو التزامن : هذا شرط ضروري في النقائض أما في المعارضات فلا يشترط أن يكون الشاعران متعاصرين إنما السابق هو الأصل .

وفن النقائض في العصر الأموي ليس فنا جديدا كل الجدة في الشعر العربي إنما هو مستحدث للتعبير عن حاجات اجتماعية ونتيجة لظروف سياسية وتطورات عقلية طرأت علي الأمة العربية لم تكن معروفة من قبل.

إنه في الواقع تطور لفن الهجاء القديم حيث كان العرب في الجاهلية يتهاجون هجاء كثيرا وخاصة عقب أيامهم وحروبهم ولذلك كان آنذاك فنا متقطعا وما كانوا يريدون به إلا إثارة القبيلة للأخذ بالثأر وربما كانت أولى المناقضات في الشعر العربي ما جرى بين التبع اليماني الذي يقول :" من بحر الكامل" :

ياذا الكلام كأنني مورود من دار حمير فالفؤاد عميد

وبين كليب الذي يرد عليه قائلا :

يا ذا الكلام نسيت عقد جدودي فِلم أنفت وأنت غير حميد (١).

وكان ذلك في موقعة يوم أُراط .

ولما نشبت الحرب في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم بين مكة والمدينة استل شعراء المدينتين بجانب سيوفهم قصائد هجاء كثيرة " وظل هؤلاء الشعراء يتقاذفون بأشعارهم وكل يحاول أن ينفذ إلى ما يؤذى خصومه " (٢). ولكنها ظلت بسيطة لا يراد بها أكثر من الاستثارة والحث على الحرب وكان عمرها قصيرا .

ولعل أولى المناقضات التي جرت في صدر الإسلام ما كان بين سيدنا أبي بكر رضي الله عنه وبين عبد الله بن الزبعرى ، إذ يقول أبو بكر في غزوة عبيدة بن الحارث وهي أول قتال حدث في الإسلام :

---

(١) النقائض في الشعر الجاهلي / د. عبد الرحمن محمد الوصيفي / صـ ١٦ ، ط الآداب / ط أولي سنة ٢٠٠٣ .

(٢) في الشعر الأموي / د. يوسف خليف / صـ ١٢٦ .

أرى من لؤي فرقة لا يصدها عن الكفر تذكير ولا بعث باعث

فيجيبه ابن الزبعرى قائلا :

أمن رسم دار أقفرت بالعثاعث بكيت بعين دمعها غير لايث (١).

حتى إذا ما كان العصر الأموي وعاش العرب معيشة جديدة بعيدا عن البوادي والرعي وصيد الحيوان وعاشوا في المدن الجديدة وكفوا مؤنة العيش بسبب الغنائم الكثيرة التي تملكوها وبسبب الرواتب التي أجريت عليهم وبسبب وقت الفراغ الذي أرادوا أن يشغلوه وكانوا قد شغلوا بعضا منه بجوانب المعرفة والثقافة ولكن جانبا منه ظل باقيا فاتجهوا إلى ضروب من اللهو والتسلية ، ولذا كان الغناء والغزل الصريح في الحجاز وأما في العراق فقد اتجهوا إلى فن قديم هو الهجاء الذي ساعد علي اشتغاله العصبيات القبلية وراحوا يطورونه ليسدوا وقت فراغهم ويمتعهم كنوع من التسلية .

ومن ثم يمكن القول إن الأسباب التي أدت إلى ظهور فن النقائض في العصر الأموي كثيرة منها .

١- الظروف السياسية " سبب سياسي "

أدى موقف الدولة الأموية من شعراء النقائض وقبائلهم في العراق إلى اشتعال نار النقائض فلقد "عملت تلك الدولة علي إذكاء نيران العصبيات التي اشتعلت بينها نتيجة للحياة القبلية – ومضت تنفخ فيها لتزيد من تأُججها حتى تصرف هذه القبائل المستقرة في هذه المنطقة المضطرمة بحركات المعارضة السياسية عن التفكير في السياسة أو الاشتغال بها (٢).إذ مرة تساند تغلب وتارة تناصر قبيلة

(١) انظر شعر أبي بكر الصديق " دراسة نصبه " د. غريب محمد علي / مجلة كلية الآداب بالمنيا سنة ٢٠٠٣ .

(٢) تاريخ الشعر العربي في العصر الإسلامي / د. يوسف خليف / صـ ١٨٤ ، ط دار الثقافة ، سنة١٩٨٨ .

تميم أو تخاصم قيسا وتارة أخرى يقرب أحد الحكام جريرا أو الفرزدق (١). تورطت القبائل وشعراء النقائض في لعبة سياسية خطيرة .

٢- أسباب عقلية وثقافية :

فتح العرب الأمم الأجنبية وأخذوا يتحولون في سرعة إلى أمة ذات ثقافة وبمجرد أن عرفوا الثقافات واستوعبوها وارتقى العقل العربي أخذوا يجلسون إلى حلقات الدرس وراحوا يضعون أصول الفقه وغيره من العلوم وراحوا يتناقشون مناقشات واسعة ويتجادلون وهذا ما يشير إليه د . شوقي ضيف قائلا وثمة " عامل عقلي هو هذه المحاورات والمناقشات التي كانت تدور بكل مكان في البصرة ، في المساجد، وفي المجالس وفي الطرقات والأسواق (٢)، وقد استطاعت تلك المحاورات والمساجلات أن تؤثر علي فن النقائض الذي يعد صدى لهذه المساجلات وتقليدا لما كان يدور من محاورات ومناظرات .

٣- الأحزاب الدينية " سبب ديني " :

استخدمت الأحزاب الدينية في هذا العصر الجدال والمناظرة في الدفاع عما تعتنقه من مبادئ وآراء ، وكان طبيعيا أن يتأثر شعراء النقائض بذلك فالعصر كله كان عصر جدال ومناظرة .

وكان علي شاعر النقائض أن يستخدم الحجج الدامغة والبراهين الساطعة ليثبت صحة رأيه ويقنع الآخرين ويفند مزاعم الخصم كما كان يصنع شعراء وخطباء وعلماء الأحزاب الدينية.

ومن ثم تحولت النقائض في جوانب منها إلى مجموعة من الأدلة والبراهين.

٤- العصبيات القبلية " سبب اجتماعي :-

(١) انظر / تاريخ النقائض / صـ ٢١٨ ، وانظر التطور والتجديد / د. شوقي ضيف ، صـ ١٨٧

(٢) التطور والتجديد في الشعر الأموي / صـ ١٨٤ .

حينما نزلت القبائل البصرة والكوفة تحيز كل منها في حيز خاص بها فمكن ذلك لأن تتقابل وأن تعمل علي اجترار الذكريات : ذكريات الأيام والحروب الجاهلية والإبقاء عليها ولذلك كانت تلك الأيام من " أهم المقومات وأكثرها شيوعا في النقائض . (١).

لقد " أسهم بعث الروح القبلية إسهاما كبيرا في ازدهار فن الهجاء الشعري المعروف بالنقائض (٢). واستطاع هذا الفن بدوره أن يعكس " في المكان الأول التنافس القبلي في كل مظاهره الخاصة منها والعامة "(٣).

والحق أن النقائض قد استطاعت أن تحيي " ما كمن وتوارى من نزعات الجاهلية (٤). حتى لقد غدت معرضا " لأيام العرب وأخبارها ومفاخرها ومعايبها ".(٥).

لقد احتشدت تلك القبائل في سوقي المربد والكناسة حول شعراء النقائض مستمعة إلى ما يصوغونه من هجاء وحاثة عليه بكل سبيل ، مذكية ناره ، مؤججة أوراه ، وقد دفع هذا الأمر بالشعراء إلى التهاجي والخصومة والمنافسة وقد عول أحمد الشايب علي هذا العامل كثيرا إذ يقول " من الواضح أن العصبية القبلية كانت الدافع المباشر لما ثار من مناقضة بين الشعر في الأغلب الأعم . " (٦).

٥- وجود طبقة عاطلة " سبب اجتماعي :

وجدت في ذلك العصر طبقة عاطلة أرادت أن تقطع وقت فراغها في فن من فنون التسلية واللهو . وقد وجدت بغيتها في شعراء النقائض فاضطر هؤلاء

---

(١) في الشعر الأموي / د. يوسف خليف / صـ ١٢٩ .

(٢) شعر والبصرة في العصر الأموي / د. عون الشريف قاسم / صـ ١١٧ ، دار الثقافة – بيروت ط ، سنة ١٩٧٢ .

(٣) السابق / صـ ١٣٣ .

(٤) الفرزدق / د .شاكر الفحام ، صـ ٢٩١ ، ط دار الفكر – بدون .

(٥) الفرزدق / د .شاكر الفحام ، صـ ٢٩١ ، ط دار الفكر – بدون .

(٦) تاريخ النقائض / صـ ٢٢٠ .

الشعراء إلى التجويد في شعرهم ليجعلوه فنا يقطع وقت فراغ هذه الطبقة ويسليها ويسري عنها ويشدها إليه .

لقد كان "يقصد بالنقائض قبل كل شئ إلى تسلية الجماعة العاطلة التي تكونت في المدينتين الكبيرتين البصرة والكوفة وقد بدأت بأسباب قبلية ولكنها تطورت إلى مناظرة يراد بها ملء أوقات العاطلين حتي لقد غدت فنا يراد به إمتاع هذه الطبقة وتسليتها (١)..

٦- الخلافات الشخصية :

كانت هناك خلافات شخصية وعداءات ذاتية بين شعراء النقائض أنفسهم ومن ذلك أن جريرا كان قد سلط علي مجاشع عشيرة الفرزدق سهام هجائه فتصدى له بعض شعرائها ، لكنهم سقطوا دون الارتفاع إلى سمته ، فلجأت العشيرة إلى شاعرها الأعظم الفرزدق تحثه علي دخول المعركة ضد جرير ومن ثم راح كل من الشاعرين يدافع عن قبيلته ويهجو منافسه وغير هذا المنافس هجاء مرا (٢).

طرق (صور) المناقضة :

يجب أن نلاحظ أن النقائض في العصر الأموي تحولت بين الشعراء إلى نوع من المناظرة والمساجلة كما يلاحظ أن هؤلاء الشعراء لم يكونوا متخاصمين لأنهم علموا أنهم يقودون " مناظرة لتسلية الجمهور الملتف حولهم و إمتاعه (٣) والرغبة في إعجاب هذا الجمهور وقد أخذت تلك المناظرات الشعرية (النقائض) ، صورا وطرقا متعددة منها علي سبيل المثال :

أ- أن يرسل الشاعر نقيضته في الجمهور فيتناشدها وينقلها إلى الخصم الذي يتفرغ لقراءتها ودراستها ونقض معانيها وهذه هي الصورة الشائعة الذائعة من صور النقائض وهنا يجب أن تشير إلى أن النقيضة الثانية عادة ما تكون أضعف من الأولى لأن الجمهور كان يتعجل الرد من الشاعر الثاني .

---

(١) العصر الاسلامي / د. شوقي ضيف / صـ ٢٥٠ ،

(٢) انظر / شعراء البصرة ، صـ ١٣٨ .

(٣) في الشعر الأموي / د. يوسف خليف ، صـ ١٣٦ .

ب- أن يعود الشاعر الأول إلى قصيدته الأولى فيضيف إليها أبياتا متصلة بأحداث جديدة إذ ليس من الحتم أن يكتب قصيدة ثالثة وقد يعود إلى قصيدة قديمة فيضيف إليها أبياتا أيضا ويجعلها نقيضة .

جـ - المواقفة : وهي أن يأتي الشاعران وقد استعدا وأخذا أهبتهما وهيئا ما يتفاخران به فيقفان في مكان واحد ومكانين متقاربين يحيط بكل منهما أنصاره ومؤيدوه يسعون بينهما بالأشعار والأخبار وكل من الشاعرين ينال من خصمه ويرد عليه أقواله (١)

د- ما يحدث بين شعراء النقائض أمام الأمراء والقادة والخلفاء

أهم السمات الفنية للنقائض :

تتسم النقائض غالبا بسمات فنية أهمها وأبرزها ما يأتي :

الطول : فلقد جاءت أكثر النقائض طويلة وبلغ بعضها أكثر من مائة وخمسين بيتا.

جزالة الأسلوب وقوة اللفظ وإحكام العبارة حتى لقد قيل عن الفرزدق " كأنه ينحت من صخر.

ج- العناية بالمقدمات والاهتمام بالمطالع والتجويد فيها وقد جاء كثير من المطالع غزلية (مقدمات غزلية) مع ملاحظة أن الفرزدق لم يلتزم الغزل التزام مطالع جرير به .

د- بداوة الخيال ونقصد بذلك أن كثيرا من صور شعراء النقائض جاء مستمدا من مشاهد البادية التي اتخذوها منبعا لا ينضب .

هـ التكرار في الصور: تكرر كثير من الصور عند هؤلاء الشعراء ومن يقرأ النقائض" يشعر أنه أمام أنماط وصور مكررة لا تختلف من شاعر إلى شاعر ولا تختلف فيها طبيعة تجربة عن تجربة " (٢) ولكن ليس معنى ذلك أنهم لم يبدعوا صورا جميلة أو خلا شعرهم من صور جديدة علي الإطلاق.

---

(١) الفرزدق / شاكر القحام ، صـ ٣٢.

(٢) في الشعر الاسلامي والأموي د. عبد القادر القط ، صـ ٣٦١ .

و- النزعة التقليدية: والمقصود بها أن شعراء النقائض قد استمدوا من التراث صورا قديمة وألفاظا لم تعد تلائم روح العصر الذي عاشوا فيه وغلب عليهم التأثر بالتراث القديم .

ر- وجود صور ساخرة مضحكة ولكن مهما كانت فإنها صور بسيطة قريبة مألوفة للإنسان العربي ومن ذلك قول جرير وهو يسخر من قصر الفرزدق :

وهل كان الفرزدق غير قرد أصابته الصواعق فاستدارا (١)

فيرد عليه الفرزدق قائلا :

رأيت ابن المراغة حين ذكى تحول غير لحيته حمارا (٢)

قيمة النقائض :

للنقائض قيم عديدة وفوائد جمة يمكن أن نذكر بعضها فيما يلي :

تمثل لنا النقائض نهضة فنية عظيمة في العصر الأموي .

١-النقائض ثروة لغوية هائلة اكتسبت منها معاجمنا مادة وفيرة في اللغة

٢-تركت النقائض للأدباء علي مر العصور ذخيرة كلامية ومعاني جديدة.

٣-ارتقت النقائض بالشعر رقيا عظيما : معنى ولفظا وصورة وأسلوبا.

٤-تركت النقائض ثروة نقدية عظيمة .

٥-تعد النقائض تأريخا للحياة الجاهلية وتصويرا لأيامها.

٦- صورت النقائض جوانب كثيرة من الحياة السياسية والاجتماعية في العصر الأموي .

---

(١) ديوان جرير / صـ ٢٠٩ .

(٢) ديوان الفرزدق / جـ ١، صـ ٣٥٧ .

٧-تعد النقائض مصدرا خصبا لدراسات متنوعة : أدبية واجتماعية ولغوية .

سلبيات النقائض ،

١-أدت إلى إثارة العصبية القبلية .

٢-بها كثير من الفخر المبالغ فيه .

٣-الفحش والإقذاع والسباب والشتائم والهجاء اللاذع وذكر المقابح والسوءات وقذف المحصنات وذكر العورات .

٤-التعرض للأعراض مما أدى إلى إثارة الحفيظة أحيانا .

أدت في بعض الأحيان إلي العنف وسفك الدماء .

شعـــر الغـــزل

فـــي

العصر الأموي

شغلت المرأة عقل الرجل وخياله ، وبدلت حاله ، وبلبلت باله منذ أقدم العصور ، لقد استطاعت أن تفتن ألباب الرجال وتأسر قلوبهم ، وتوحي إلى نفوسهم الحب وتغمرهم بالأمل والاستبشار حينا ، وبالحيرة والقلق حينا آخر ، فانطلق يصور أحاسيسه ومشاعره تجاهها، وما شعر الغزل إلا صورة عكسها لنا ذلك التفكير، وأفرغها لنا خيال الشعراء .

والغزل في الشعر العربي قديم ، ولقد كان في العصر الجاهلي موزعا بين الذكريات والبكاء علي الديار والتشبب بالأطلال التي هجرها الأحباب، وبين الحديث عن المحبوبة التي ظعنت من هذه الديار ، كما كان موزعا بين وصف المرأة وصفا عفيفا ، وبين تصويرها تصويرا جسديا مجردا من كل عاطفة سامية.

وقد استمر هذان التياران في العصر الأموي : تيار الغزل العفيف وتيار الغزل الصريح .

ومعروف أن الغزل العفيف هو الذي يذكر فيه الشاعر حبه وتعلقه بمحبوبة واحدة ، يقف عندها ، ويرى فيها المثل الأعلي الذي يحقق له متعة روحية ورضا نفسيا و استقرارا عاطفيا ، فهي الأمل المرجو والهدف المنشود والغاية المقصودة، إنها الفتاة التي يقضي عمره ناسكا في محراب عشقها لا يشرك في حبها سواها ، يرتل تسابيح الولاء من أجلها ، يوقد لها الشموع : شموع أيامه ويحرق عند قدميها البخور : بخور عمره ، إنها الكأس التي يعيش عمره ظامئا إليها فهي القطرة التي تبل أوامه وتنقع غلته الصادية ، والري الذي لا يجده في كأس سواها لقد تحولت المرأة في هذا النوع من الغزل إلى كائن مثالي ملائكي متدثر بهالة من الروحانية والقدسية تلك الهالة التي تحول دون مسه أو لمسه .

وقد عرف هذا النوع من الغزل في عصر بني أمية باسم آخر هو الغزل العذري نسبة إلى قبيلة بني عذرة القضاعية التي كانت تنزل شمالي الحجاز في وادي القرى ، وقد اشتهرت بكثرة عشاقها المولهين المدلهين الصادقين المخلصين في حبهم حتى لو أدى ذلك الحب إلى الجنون أو أفضى إلى الموت ويتضح ذلك في إجابة أحدهم حينما سئل ممن أنت ؟ فقال : من قوم إذا عشقوا ماتوا ، وروي أن عروة بن حزام حينما سئل : أصحيح ما يروى عنكم من أنكم أرق الناس قلوبا ؟ أجاب بقوله : نعم والله لقد تركت ثلاثين شابا قد خامرهم الموت وما لهم داء إلا الحب .

ويدور هذا الغزل حول أفكار كثيرة أهمها الإخلاص لمحبوبة واحدة والوفاء لها فالشاعر العاشق ، المحب الوامق لا يحول أو يزول ولا يريم عن محبوبته مهما حاول أحد أن يثنيه عنها أو ينسيه حبها ، ولذلك نرى عروة بن حزام يقول :

فوالله لا أنساك ما هبت الصبا ... وما أعقبتها في الرياح جنوب
وإني لتعروني لذكراك هزة ... لها بين جلدي والعظام دبيب(١)

ويقول قيس بن ذريح.

فإن يحجبوها أو يحل دون وصلها ... مقالة واش أو وعيد أمير
فلن يمنعوا عيني من دائم البكا ... ولن يذهبوا ما قد أجن ضميري (٢)

ويقول :

يقرَّ بعيني قربها ويزيدني ... بها كلفا من كان عندي يعيبها
وكم قائل قد قال:تب، فعصيته ... وتلك لعمري توبة لا أتوبها (٣)

---

(١) الأغاني / جـ ٢٠ / صـ ١٥٥ .
(٢) قيس ولبني : شعر دراسة / د. حسين نصار / صـ٩٦ ، ٩٧ / ط دار مصر للطباعة سنة١٩٧٩م .
(٣) قيس ولبني / د. حسين نصار / صـ ٦٣ .

وهذا جميل بثينة يعبر عن ذلك الإخلاص بقوله وقد تعرضت له بعض العارضات ليثنينه عن حبها :

أبثين إنك قد ملكت فأسجحي وخذي بحظك من كريم واصل
فلرب عارضة علينا وصلها بالجد تخلطه بقول الهازل
فأجبتها بالقول بعد تستر حبي بثينة عن وصالك شاغلي
لو كان في قلبي كقدر قلامة فضلا وصلتك أو أثنتك رسائلي (١)

ومن هذه الأفكار الحديث عما يعانيه الشاعر المحب من لواعج العشق والهوى وتباريح الصبابة والجوى وحرق الحب في باطن الحشا وذلك كما نرى في قول قيس بن ذريح:

إلي الله أشكو ما ألاقي من الهوى ومن كرب تعتادني ورفير
ومن حرق للحب في باطن الحشا وليل طويل الحزن غير قصير (٢)

وكما نرى في قول جميل :

إذا قلت ما بي يا بثنية قاتلي من الحب قالت : ثابت ويزيد
وإن قلت ردي بعض عقلي أعش به مع الناس قالت : ذاك منك بعيد
فلا أنا مردود بما جئت طالبا ولا حبها فيما يبيد يبيد (٣)

وقول مجنون ليلي :

---

(١) ديوان جميل بثنية / تحقيق د. حسين نصار / صـ ١٧٩ / ط دار مصر للطباعة / سنة ١٩٧٩. وانظر شرح ديوان جميل بثنية / شرح مهدي محمد ناصر الدين / صـ ٧٠ دار الكتب العلمية – بيروت سنة ١٩٨٧ .

وانظر من شرح ديوان جميل بثنية / شرح إبراهيم جزيني / صـ ٨٦ / ط المكتبة الثقافية – بيروت بدون تاريخ .

(٢) قيس ولبني / صـ ٩٧ .

(٣) ديوان جميل / صـ ٦٣ .

فإن لهيب النار بين جوانحي إذا ذكرت ليلي أحر من الجمر (١)

وكما نرى أيضا في قول قيس بن الملوح :

أبيت صريع الحب باك من الهوى ودمعي علي خدي يفيض ويسجم
ألا إن دمع الصب عما يجنه وإن لم يفه يوما به متكلم
لساني عيى في الهوى وهو ناطق ودمعي فصيح في الهوي وهو أعجم
وكيف يطيق الصب كتمان سره وهل يكتم الوجد امرؤ وهو مغرم (٢)

وكما يتجلى أيضا في قول كثير عزة :

إلي الله أشكو لا إلي الناس حبها ولابد من شكوى حبيب يودع
ألا تتقين الله في حب عاشق له كبد حرى عليك تصدع
وما للهوى والحب بعدك لذة ومات الهوى والحب بعدك أجمع(٣)

ومن الأفكار التي يدور حولها هذا الغزل الحديث عن البعد والحرمان و التشبث بالمنى والآمال ، وأمنية القرب والوصال ، وتعليل النفس بأن حسبها أشياء تجمع بين الأحبة رغم ذلك البعد كما يقول قيس بن ذريح :

إن تك لبني قد أتي دون قربها حجاب منيع ما إليه سبيل
فإن نسيم الجو يجمع بيننا ونبصر قرن الشمس حين تزول

---

(١) ديوان مجنون ليلي / صـ١١٨.

(٢) ديوان مجنون ليلي / تحقيق وشرح : جلال الدين الحلبي / صـ ٤٤، ٤٥ / ط البابي الحلبي سنة ١٩٣٩ م .

وانظر ديوان مجنون ليلي / جمع وتحقيق : عبد الستار أحمد فراج / صـ ١٨٧ / ط دار مصر للطباعة سنة ١٩٧٩ م

(٣) ديوان كثير عزة / شرح : عدنان زكي درويش / صـ ١٥٩ / ط ١ دار صادر بيروت سنة ١٩٩٤ .

وأرواحنا بالليل في الحي تلتقي ونعلم أنا بالنهار نقيل
وتجمعنا الأرض القرار وفوقنا سماء نرى فيها النجوم تجول
إلي أن يعود الدهر سلما وتنقضي ترات بغاها عندنا وذحول (١)

وتتضح هذه الفكرة أيضا في قول جميل :

وإني لأرضى من بثينة بالذي لو أبصره الواشي لقرت بلابله
بلا ، وبأن لا أستطيع وبالمني وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى بالحول تنقضي أواخره لا نلتقي وأوائله (٢)

وفي قوله أيضا:

ألا ليت أيام الصفاء جديد ودهرا تولي يابثين يعود
فنغني كما كنا نكون وأنتم صديق وإذا ما تبذلين زهيد(٣)

ومن تلك الأمنيات – نتيجة البعد والحرمان – أن لو ظل الحبيبان صغيرين لم يكبرا بعد ليلتقيا دائما ، وهذا ما يظهر في قول مجنون ليلي:

تعلقت ليلي وهي غر صغيرة ولم يبد للأتراب من ثديها حجم
صغيرين نرعي البهم ياليت أننا إلي اليوم لم نكبر ولم تكبر البهم (٤)

وفي تضاعيف هذا الغزل يبث الشاعر ولهه الذي هد كيانه وزلزل أركانه ، هذا الوله الذي يصل به إلى حد المرض والضنى والنحول والذبول أو يصل إلي حد يجعلنا نشك في إيمانه ، ولعروة وابن الملوح أبيات في هذا المعني ، يقول عروة :

تحملت من عفراء ما ليس لي به ولا للجبال الراسيات يدان

---

(١) قيس ولبني : شعر ودراسة ، صـ ١٤٠ .
(٢) ديوان جميل / د. حسين نصار / صـ ١٦٩ .
(٣) ديوان جميل / د. حسين نصار / صـ ٦١ .
(٤) ديوان مجنون ليلي / صـ ١٨٦ .
وانظر ديوان مجنون ليلي / شرح مجيد طراد / صـ ١٨٤ .

كأن قطاة علقت بجناحها علي كبدي من شدة الخفقان
جعلت لعراف اليمامة حكمه وعراف نجد إن هما شفياني
وما شفيا الداء الذي بي كله ولا ذخرا نصحا ولا ألواني
فقالا : شفاك الله والله مالنا بما ضمنت منك الضلوع يدان
فويلي علي عفراء ويلا كأنه علي الصدر والأحشاء حد سنان (١)

ويقول مجنون ليلى :

تذكرت ليلي والسنين الخواليا وأيام لا نخشى علي اللهو ناهيا
أعد الليالي ليلة بعد ليلة وقد عشت دهرا لا أعد الليماليا
وأنت التي إن شئت نغصت عيشتي وإن شئت بعد الله أنعمت باليا
أراني إذا صليت يممت نحوها بوجهي وإن كان المصلي ورائيا
وما بي إشراك ولكن حبها كعود الشجي أعيا الطبيب المداويا
أصلي فما أدري إذا ما ذكرتها أثنتين صليت الضحي أم ثمانيا
إذا الحب أضناني دعوا لي طبيبهم فيما عجبا هذا الطبيب المداويا
وقالوا به داء قد أعيا دواؤه وقد علمت نفسى مكان شفائيا(٢)

وأما قيس لبنى فإنه يقول :

رمتني لبيني في الفؤاد بسهمها وسهم لبيني للفؤاد صبود
وقائله قد مات أو هو ميت وللنفس مني أن تفيض رصيد
أعالج من نفسي بقايا حشاشة علي رمق والعائدات تعود(٣)

---

(١) الأغاني / جـ ٢٠ / صـ ١٥٥ .

(٢) ديوان مجنون ليلي / صـ ٢٣٠ – ٢٣٢ / تحقيق عبد الستار أحمد فراج .وتروى بعض هذه الأبيات براويات أخري كثيرة وانظر علي سبيل المثال :

- ديوان مجنون ليلي / جميع وترتيب : أبي بكر الوالبي / صـ ٨٩ وما بعدها .
- ديوان مجنون ليلي / تقديم وشرح مجيد طراد / صـ ٢٣٧ – ٢٤٢ / ط عالم الكتب / بيروت ط أولي سنة ١٩٩٦

(٣) قيس ولبني / صـ ٨٠ .

والحديث عن الظنون والأوهام والهواجس والوساوس والواشين لا تخلو من هذا النوع من الغزل وذلك أمر بدهي فالمحب دائما يحدوه الأمل والرجاء ويحيط به اليأس والحزن والخوف ، ويلازمه الواشون الحاقدون وفي ذلك يقول قيس لبنى :

وكنا جميعا قبل أن يظهر الهوى بأنعم حالي غبطة وسرور
فما برح الواشون حتى بدت لهم بطون الهوى مقلوبة لظهور
لقد كنت حسب النفس لودام وصلنا ولكنما الدنيا متاع غرور(١)

ويقول كثير عزة :

وخبرها الواشون أني صرمتها وحملها غيظا علي المحمل (٢)

ويقول جميل بثينة :

نصد إذا ما الناس أكثروا علينا وتجري بالصفاء والرسائل
فإن غفل الواشون عدنا لو صلنا وعاد التصافي بيننا والتراسل(٣)

وفي هذا الغزل يظهر لنا محور آخر من محاوره وهو الحديث عن العفة والطهر إذا لا سلطان فيه لشهوات الحس ونوازع الجسد ونزوات الجنس
إن عطر النقاء والعفاف يفوح من هذا الغزل وإن أثير الفضيلة والصفاء ليضوع من خلاله رغم ما يحدث بين العاشقين من خلوات وسمر ، وهذا قيس بن ذريح يصور ذلك قائلا .

تتوق إليك النفس ثم أردها حياء ومثلي بالحياء حقيق
أذود سوام النفس عنك وماله علي أحد إلا عليك طريق(٤)

(١) قيس ولبني ، صـ ٩٧ .
(٢) ديوان كثير عزة ، صـ ٢٢٤ .
(٣) ديوان جميل / صـ ١٥٩ .
(٤) قيس ولبني / صـ ١٢٨ .

ويقول جميل بثنية :

لا والذي تسجد الجباه له ... مالي بما دون ثوبها خبر

ولا بفيها ولاهممت به ... ما كان إلا الحديث والنظر(١)

ويقول :

وكان التفرق عند الصباح ... عن مثل رائحة العنبر

خليلان لم يقربا ريبة ... ولم يستخفا إلي منكر(٢)

ويجب أن نسجل هنا عدة ملاحظات ونحن بصدد الحديث عن هذا الغزل العفيف أهمها ما يأتي :

التشابه بين قصص هؤلاء العشاق العذريين فلقد عاشوا في بيئات متشابهة وعاشوا حياة متشابهة تحكمها ظروف متشابهة وتقاليد متشابهة

لم يكن هذا النوع من الغزل من خلق العصر الأموي بل وجد منذ العصر الجاهلي كما ذكرنا ذلك من قبل – ولكن الحياة الأموية هي التي هيأت له وكانت سببا في ابتعاثه .

٣- دخل بعض الأساطير هذه القصص ولكن لم تكن أسطورية صرفة ولم تكن قصصا خيالية خالصة من صنيع القصاص ونسج الرواة وإن كنا نشك في صحة كل ما وصل إلينا من أبيات غزلية وفي نسبتها إلى قائليها ، لأن قصص هؤلاء العشاق كانت في فترة من الفترات تلبية لحاجات السمر والمتعة وطلبا للإغراب والإعجاب واستثارة لشوق السامعين حتى لقد" غدت أخبارها لونا شعبيا عاما ولعل شعبيتها هي التي أكثرت من القصص حولها " (٣)

---

(١) شرح ديوان جميل ، صـ٣٤/ وشرح ديوان جميل / إبراهيم جزيتي ، صـ ٥٤ . وفي : ديوان جميل / تحقيق د. حسين نصار .

..... مالي دون ثوبها خبر

(٢) ديوان جميل / د حسين نصار ، صـ ١٠٦.

(٣) العصر الإسلامي / د. شوقي ضيف / صـ ٣٦١ / ط –دار المعارف سنة ١٩٧٨

٤- لم يكن هذا الغزل مقصورا علي بني عذرة فهو نبتة صحراوية أصيلة رعتها البادية وسقتها الصحراء وهيأت له الأسباب بما فيها من" سكون وصمت في لياليها المقمرة الشاحبة (١) وأما بنو عذرة فقد عرفوا به لأن حياتهم لم تكن قاسية " ولا كان فيها هذا الجدب المهلك وإنما كان فيها خصب ونماء هيآ لشئ من الفراغ كما هيآ لشئ من الاستقرار ، فليس فيها منازعات علي المراعي (٢) وكأنما قد فرغوا " للتعبير عن آلام النفس إزاء هذا الحب ، وكأنهم فرغوا لأنفسهم أو هيأت لهم حياتهم أن يفرغوا لأنفسهم فأخذوا يغنونها هذا الضرب من الشعر الوجداني(٣) بالإضافة إلى ما عرفوا به من رقة المشاعر ودقة الأحاسيس .

٥- طبع هذا الغزل بطوابع إسلامية ، فلقد فرض الإسلام علي الناس في بيئة البادية أن يغضوا أبصارهم ولا يأتوا بفاحشة ولا ينتهكون المحرمات " (٤) ولذلك نجد في هذا النوع من الغزل الطهر والبراءة والتسامي كما نجد فيه الحزن الصادر عن نفس ملتاعة تخشى الله وتخافه ، ويرى البعض أن الإسلام كان من أهم الأسباب التي أدت إلى وجود هذه الظاهرة فلقد "طهر النفوس وبرأها من كل إثم(٥) وكان " له أثر بعيد في سيطرة هذا الجيل علي غرائزه واستمساكه قدر الطاقة بالعفة والتقوى (٦).

٦- من أهم أسباب ظهور هذا اللون من الغزل التقاليد الاجتماعية وخاصة وضع المرأة الاجتماعي ونظرة الرجل إليها فقد ظلت المرأة في هذا المجتمع خاضعة لنفس التقاليد الصارمة التي كانت مفروضة عليها منذ العصر الجاهلي ، تقاليد المنعة والحجاب والرقابة والحراسة. (٧)

---

(١) الحب العذري عند العرب / د. شوقي شيف / ص٢٠. ط مكتبة الأسرة سنة ٢٠٠٥.

(٢) الحب العذري عند العرب ، صـ١٩

(٣) الحب العذري عند العرب ، صـ١٩

(٤) الحب العذري عند العرب ، صـ٢٠ .

(٥) العصر الإسلامي / د. شوقي ضيف / صـ ٣٥٩ .

(٦) في الشعر الاسلامي والأموي / د . عبد القادر القط ، صـ ٧٩ ، وهذا السبب هو ما يسميه بالتفسير الديني .

(٧) في الشعر الأموى/ د. يوسف خليف / صـ٦٢.

٧- مما ساعد علي ظهور هذا الفن في بيئة البادية أن شبابها لم يكن أمامهم " إلا فتيات القبائل أو بنات العم المحجبات الممنعات بكل ما يتمتعن به من حصانة وكل ما يحيط بهن من قداسة . (١)

٨- مما أدى إلى ظهور هذا الفن في هذه البيئة أنها عاشت حياة اقتصادية فقيرة وظلت تعاني من شظف العيش وضنك الحياة ، كما أن موقف السياسة الأموية ، منها كان مغايرا لموقفها من بيئة الحجاز فلم تكن الدولة الأموية تخشى علي نفسها من هذه البيئة ومن ثم فلم تظهر الطبقات المترفة بل "ظل الحرمان هو السمة الغالبة علي المجتمع البدوي وظل الكبت هو العنصر الكامن في أعماقه"(٢).

٩- كان هذا النوع من الغزل أشبه بمتنفس يخفف عن شباب البادية قساوة الأيام والحرمان وقد وجدوا فيه نوعا من التعويض عما حرموا من وسائل اللهو دون المساس بتعاليم الإسلام ، وهذا ما يمكن أن نسميه بالتفسير النفسي لهذه الظاهرة.

وعلي الجانب الآخر من هذا الغزل وقف الغزل الحسي الصريح الذي يفتن فيه الشاعر بوصف المرأة من حيث إنها أنثى تشبع الجوع الجنسي وتحقق له المتعة واللهو واللذة وترضي الحس ، ومن حيث إنها تشبع له غرائزه ونزواته ، ومن حيث إنها فتنة طاغية تبهر الرجل وتفتنه وتأسره بما تملك من جمال ودلال .

إن المرأة في هذا النوع من الغزل وسيلة لا غاية والشاعر هنا لا يقف عند واحدة بعينها بل هو كالفراشة الحائمة الهائمة التي تنتقل من فنن إلى فنن ومن زهرة إلى زهرة فريثما يمتص رحيق زهرة فتذبل إذا به يبحث عن زهرة أخرى .

إن الشاعر هنا يدعي الحب وهو كاذب لعوب ولوب ، والمرأة عنده غراء فرعاء مصقول عوارضها ذات خد أسيل وردف ثقيل وشعر طويل وعيون حوراء ، وأهداب متكسرة وطفاء .

---

(١) في الشعر الأموي ، صـ ٦٢ .

(٢) في الشعر الأموي ، صـ ٦٣ .

وقد سمي د. القط هذا الأمر بالتفسير السياسي انظر في الشعر الاسلامي والأموي / صـ ٦٥ .

والحق أن الشعراء العرب قد وضعوا في وصف المرأة مقاييس جمالية يبغونها ويطلبون تحقيقها ولذا نرى علي سبيل المثال جريرا يتحدث عن العيون الحوراء فيقول :

إن العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله إنسانا (١).

وخير من يضرب لنا المثل في عدم الوقوف عند واحدة بعينها عمر بن أبي ربيعة الذى يقول في ثلاث أخوات شغلن به :

قالت الكبرى : أتعرفن الفتى قالت الوسطى : نعم هذا عمر
قالت الصغرى وقد تيمتها قد عرفناه وهل يخفي القمر (٢).

وأخبار ابن أبي ربيعة كثيرة عن صواحبه اللاتي بلغن أكثر من سبع وثلاثين صاحبة سمى كل وحداة باسمها عدا اللواتي لم يسمهن ومن تلك الصواحب (هند ، ونعم وزينب والثريا والرباب وغيرهن) وقد استطاع عمر بن أبي ربيعة أن يقلب آية الغزل في الشعر العربي فبعد أن كان الشاعر هو المحب اللاهث وراء محبوبته جعل ابن أبي ربيعة النساء هن اللواتي يلهثن وراءه ويطلبنه وهذا ما يتضح في قوله :

وكن إذا ابصرنني أو سمعنني سعين فرقعن الكوى بالمحاجر (٣).

والحق أن ليس في هذا النوع من الغزل عفة أو طهارة إنما هي المتع الحسية والغرائز الجنسية ، فالوجوه سافرة والنقاب مكشوف بلا أدنى حياء أو خجل وفي ذلك يقول العرجي :

---

(١) شرح ديوان جرير / مهدي محمد ناصر الدين / صـ ٤٥٢ ، ط دار الكتب العلمية – بيروت سنة ١٩٩٢ . وفي رواية ...."وهن أضعف خلق الله أركانا"

(٢) ديواتن عمر بن أبي ربيعة / صـ ٩٠ / ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٨ .

(٣) ديوان عمر بن أبي ربيعة ، صـ ١٠٩ .

أماطت كساء الخز عن حر وجهها وأدنت علي الخدين بردا مهلهلا
من اللاء لم يحججن يبغين حسبة ولكن ليقتلن البرئ المغفلا(١).

والمرأة - لدى الشاعر – هنا عبارة عن عيون وخدود وقدود وجيد و وجنات وبنان رخص مخضب وجلد ناعم بض أملس فالشاعر مولع بالجمال الجسدي متتبع للحسن الأنثوي كلما أبصره كما يقول ابن أبي ربيعة :

إني امرؤ مولع بالحسن أتبعه لاحظَّ لي فيه إلا لذة النظر(٢).

ويقول واصفا هندا مرة :

غادة يفتر عن أشنبها حين تجلوه أقاح أو برد
ولها عينان في طرفيهما حور وفي الجيد غيد (٣).

ويصفها الأحوص جملة فيقول :

مهفهفة الأعلى وأسفل خلقها جرى لحمه من دون أن يتخددا
كأن ذكي المسك منها وقد بدت وريح الخزامى عرفه ينفح الندا ٤

فهي في نظره في غاية من الرشاقة والأناقة ، ممشوقة القد والقوام ، مكتملة الحسن ، وكأن قد تحققت فيها كل مقاييس الجمال الأنثوي.

ومهما يكن من أمر فإن الشاعر في هذا النوع من الغزل يحس أنه اجترف أثاما واقترف ذنوبا وذلك كما يظهر في قول ابن أبي ربيعة :

يقصد الناس للطواف احتسابا وذنوبي مجموعة في الطواف (١)

---

(١) الأغاني / جـ ١ ، صـ ١٥٥ ، وانظر ديوان العرجي / جمع وتحقيق : د. سجيع جميل الجبيلي / صـ ٢٨٥، ٢٨٦ / ط أولى / دار صادر / بيروت / ١٩٩٨ .

(٢) ديوان عمر بن أبي ربيعة ، صـ ١٠٩ ،

(٣) ديوان عمر بن أبي ربيعة ، صـ ٥٤ .

(٤) ديوان الأحوص / تحقيق وشرح د . سعدي ضناوي / صـ ٥٤ / ط أولى / دار صادر بيروت / ١٩٩٨ .

ويجب أن نسجل هنا أن هذا الضرب من الغزل قد نما نموا واسعا في المدينة ومكة وعملت فيه ظروف عديدة منها :

تحضر المرأة في هذه البيئة تحضرا عظيما فلقد بنيت لها القصور وملئت بالجواري من الأجنبيات اللواتي حملن معهن عادات وأخلاقيات مغايرة للعادات والأخلاقيات العربية .

الحرية التي أخذت المرأة منها – في هذه البيئة - بقسط وافر فلقد اختلطت بالشباب مع المحافظة علي كرامتها وشعورها بمركزها الاجتماعي الجديد.

كثرة الأموال التي صبت في حجور أهل مكة والمدينة أدت إلى وجود طبقة من " الشباب كانوا فارغين من عمل فليس هناك ما يشغلهم "(٢) ومن ثم أخذوا يبحثون عن وسيلة من وسائل التسلية واللهو ليقطعوا بها وقت فراغهم فكان شعر الغزل إحدى هذه الوسائل.

مجالس اللهو والطرب والغناء التي وجدت نتيجة الفراغ الذي عاشته طبقة كبيرة من الشباب ، وفي هذه المجالس راح الشعراء يتغزلون ويختلطون بالمغنيات ويصفون المفاتن الحسية ويقدمون مادة شعرية جاهزة للغناء فلقد تطلبت هذه المجالس مددا دائما من شعر الحب " وكان علي الشعراء أن يقدموا هذه المادة الفنية كلما طلب إليهم ذلك"(٣).

شعور المرأة العربية بشخصيتها وأنها فتاة الفاتحين العظام أدى بها إلى الأخذ بقسط كبير من الحرية فراحت تختلط بالشباب.

أذواق السامعين المتحضرين ، تلك الأذواق التي احتاجت إلى ما يرضيها من غناء لاه عابث تردده وتحس أنها تستمتع به .

---

(١) عيون الأخبار / ابن قتيبة / جـ ٤ ، صـ ١٠٧ .

(٢) الشعر والغناء في المدينة مكة لعصرين أمية / د. شوقي ضيف ، صـ ١٧٥ / ط دار المعارف ، سنة ١٩٧٩ م .

(٣) في الشعر الأموي " دراسة في البيئات " د. يوسف خليف / صـ١٤٩ / ط غريب سنة ١٩٩١ .
– وانظر تاريخ الشعر العربي في العصر الإسلامي د. يوسف خليف ، صـ ٨٥ ، ط دار الثقافة سنة ١٩٨٨ .

انتقال الدولة من عواصم الحجاز إلى عواصم الشام أدى إلى تفرغ المترفين لحياة من الفراغ لا رقابة عليها بل أدى إلى التشجيع علي حياة المجون والبطالة لأن أصحاب الدولة كانوا يخشون من أبناء هذه المنطقة لو انصرفوا إلى حياة الجد والطموح إذ لا أمان للدولة في جدهم وطموحهم .

إنها الحياة المترفة والأموال المتدفقة والجواري والرقيق وما حملوا معهم من عادات مغايرة وإنها الحرية والفراغ والتعطل وخوف الدولة من أبناء هذه المنطقة والتحضر الذي أصاب هذه البيئة وموجة الغناء والعبث .

هي أهم العوامل التي أدت إلى انتشار هذا اللون من الشعر في بيئة الحجاز.

جرير*

اسمه ونسبه وكنيته ولقبه ومولده :

هو جرير بن عطية بن الخطفي ، والخطفي لقب وأما اسمه فحذيفة بن بدر بن سلمة بن عوف بن كليب بن يربوع .

وكنية جرير أبو حزرة (حرزة ابنه الأكبر) ، كما كنى بابن المراغة وهي من الأسماء القبيحة للأتان .

وقد اختلف في سنة مولده ولكن أشهر الآراء أنه ولد سنة ثلاثين للهجرة تقريبا ، ولكن لم يختلف في مكان الميلاد فلقد ولد في بادية اليمامة حيث كان بنو كليب ينزلون بقرية حجر إحدى قرى اليمامة في الجنوب الشرقي من نجد (الرياض الآن) .

---

* **انظر في هذا الموضوع**

١- طبقات فحول الشعراء / جـ٢، صـ.٢٧٤

٢- الموشح / صـ١٥٧ .

٣- البيان والتبين/ مواضع متفرقة .

٤- جمهرة أشعار العرب / صـ .٤١٥

٥- الشعر والشعراء / جـ١، صـ.٤٦٤

٦- الكامل / مواضع متفرقة .

٧- الأغاني / جـ ٧ / صـ٣٥ .

٨- العمده / مواضع متفرقة .

٩- ديوان جرير / شرح وتقديم / مهدي محمد ناصر الدين / ط دار الكتب العلمية / بيروت / ط ثانية سنة .١٩٩٢

١٠- العصر الاسلامي / د. شوقي ضيف / صـ ٢٧٦ .

١١- التطور والتجديد في الشعر الأموي / د. شوقي ضيف / صـ ١٣١ - ٢١٩ .

١٢- تاريخ الشعر العربي في العصر الإسلامي / د. يوسف خليف / صـ .٢٣١

١٣- جرير / حياته وشعره / د. نعمان محمد أمين / ط دار المعارف سنة ١٩٦٨ .

١٤- جرير / محمد إبراهيم جمعه / ط دار المعارف سنة ١٩٨٦ .

وقد ولد لسبعة أشهر، وقد سمته أمه جريرا لأنها رأت كأنها ولدت حبلا أسود يقفز علي الناس فيخنق من يقفز عليه ولما ذهبت إلى أحد مفسري الرؤى قال لها لتلدين شاعرا ذا منطق جزل وذا قوة وشكيمة.

أســرته :

ينتهي نسب جرير إلى بني كليب اليربوعيين التميمين ، وقد كان والده عطية رجلا مضعوفا (به ضعفة وهي ضعف الفؤاد) متخلفا في المال مبخلا، وكان شاعرا ، وكانت أم عطية (النوار بنت يزيد) من كليب أيضا وأما أم جرير فهي أم قيس وينتهي نسبها إلى بني يربوع أيضا .

وأما جده الحظفي فكان كثير المال من الغنم والحمير وكان كريما وكان شاعرا ، وكان لجرير أخوان هما عمرو (عمر) وأبو الورد وكان عمرو أكبر من جرير وكان يقارضه الشعر.

وإذا لم يكن جرير قد نشأ في بيت مجد وعز فإنه نشأ في بيت شعر وقد ورث الشعر عن أبيه وجده وكان جده يلقنه الشعر ، وقد ورث جرير الشعر لأبنائه من بعده .

نشأته وحياته :

نشأ جرير في اليمامة بدويا فقيرا يرعى لأبيه غنيمات من الضأن والمعزى، وقد تفتحت شاعريته مبكرا ولما يبلغ الخامسة عشرة من عمره بعد ، وقد قارض آخاه عمرا الشعر، وهاجى غسان السليطي، ومازال بالبادية حتى وفد علي يزيد بن معاوية شابا ونال إحدى جوائزه علي أبيات يقول فيها:

وإني لعف الفقر مشترك الغنى سريع – إذا لم أرض دارى – انتقاليا[1]

وقد وفد بعد ذلك علي البصرة ورأى ما يتمتع به الفرزدق فنفس عليه مكانته ، وأخذ قومه يرغبونه في سكنى العراق حتى يشيع ذكره .

---

[1] ديوان جرير / صـ ٤٦٠ .

وفي العراق اتصل بالحكم بن أيوب عامل الحجاج بن يوسف الذي كان طريقا إلى اتصاله بالحجاج فاتخذه الحجاج شاعرا له ، ولما شاع شعره اتصل بعبد الملك بن مروان الذي يقول فيه :

لولا الخليفة والقرآن يقرأه ما قام للناس أحكام ولا جمع(١)

واتصل ببشر بن مروان وبولاة ابن الزبير وبعمر بن عبد العزيز الذي أنشده قصيدة يقول فيها :

إنا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا من الخليفة ما نرجو من المطر (٢)

واستمر يمدح الخلفاء الأمويين وأبناءهم وإخوتهم حتى لقد صار داعية للأمويين منذ أن عرف عبد الملك بن مروان ، وظل يتردد علي العراق حيث نشبت معركة النقائض بينه وبين خصومه من الشعراء والتي لم تتوقف إلا بوفاة الفرزدق فسكت لسان جرير.

ولم يعش جرير طويلا بعد وفاة الفرزدق حيث مات بعده بعدة أشهر وكان ذلك سنة ١١٤ هـ (وإن اختلف في ذلك) .

صفاته :

لم يكن جرير طويل القامة قوي الجسم كما ادعى البعض بل كان ضعيف البنية، وكان لديه خنخنة (غنة) في الكلام حيث كان الكلام يخرج من أنفه .

وأما أهم الصفات الخلقية فهى أنه كان متدينا عفيفا سريع البديهة ذكيا لماحا غيورا علي قومه معتزا بنفسه معتدا بذاته وبشعره ، رقيق الطبع مرهف الحس والمشاعر وفيا عفوا متسامحا .

(١) ديوان جرير / صـ ٢٦٧.

(٢) ديوان جرير / صـ ٢٠٤.

علاقته بالشعراء ومكانته الشعرية :

تفتحت موهبة جرير مبكرا – كما ذكرنا - وكانت بدايتها حينما رد علي غسان السليطي الذي هجا والد جرير وقومه إثر منازعة حدثت بين بني سليط وبني الخطفي يقول جرير في ذلك :

لا تحسبني عن سليط غافلا إن تَعْش ليلا بسليط نازلا(١)

ودارت معركة هجائية بين السليطي وجرير ولم يكن جرير قد بلغ الخامسة عشرة من عمره واستطاع جرير أن يتغلب عليه ، ويلتحم بعد ذلك مع الأعور النهاني وحكيم بن مُعيَّه ثم البعيث المجاشعي وهكذا حتى التحم مع الفرزدق وكان سبب ذلك أن الفرزدق وزوجته قد نزلا علي جرير في طريق العودة من الحج سنة ٦٤ هـ واعتذر جرير عما بدر منه من هجائه البعيث وأنشده قصيدة أعجبت النوار (زوجة الفرزدق) وقالت : قاتله الله ما أرق منسبته وأشد هجاءه فدخلت الغيرة قلب الفرزدق وقال أترين هذا أما إني لن أموت حتى ابتلى بهجائه ثم سلط جرير هجاءه علي نساء مجاشع فشكون للفرزدق فانطلق قائلاً :

ألا استهزأت مني هُنيدة أن رأت أسيرا بدُاني خُطوهُ خَلَقُ الحِجلِ(٢)

واستمرت النقائض بينهما حوالى سبع سنوات وجرير مقيم بالمرُّوت في اليمامة والفرزدق في العراق حتى انتقل جرير إلى العراق ثم دخل الأخطل بعد ذلك في تلك المعركة .

ومن الشعراء الذين دخلوا تلك المعركة عمر بن لجأ التميمي والسرندي وعبيد بن حصين أبو جندل الراعي والعباس بن يزيد الكندي والأشهب بن رميلة النهشلي والمرار بن منقذ العدواني وجفنة الهزاني والدلهمس وسراقة بن مرداس البارقي والصلتان العبدي وعدي بن الرقاع والأقيشر الأسدي وغيرهم .

وقد استطاع جرير أن يتغلب عليهم جميعا ماعدا الفرزدق والأخطل

---

(١) ديوان جرير / صـ ٣٤٩.

(٢) ديوان الفرزدق ، جـ٢ ، صـ١٥٢.

وقد ذكر الأصمعي كما ورد في الأغاني أن جريرا كان ينهشه ثلاثة وأربعون شاعرا فيبذهم وراء ظهره ويرمي بهم واحدا واحدا "(١) وقيل إنه تغلب علي ثمانين شاعرا وثبت له الفرزدق والأخطل وقد قيل إنهما لو تفرقا لانتصر عليهما .

وقد سأل رجل جريرا " من أشعر الناس ؟ فقال له قم حتى أعرفك الجواب فأخذ بيده وجاء إلى أبيه عطية وقد أخذ عنزا له فاعتقلها وجعل يمص ضرعها فصاح به اخرج يا أبت فخرج شيخ دميم رث الهيئة وقد سال لبن العنز علي لحيته فقال له : ألا ترى هذا ؟ قال نعم " قال أو تعرفه؟ قال لا " قال هذا أبي ، أفترى لم كان يرضع العنز ؟ قال لا ، قال مخافة أن يسمع صوت الحلب فيطلب منه اللبن ثم قال : أشعر الناس من فاخر بهذا الأب ثمانين شاعرا وقارعهم به فغلبهم جميعا ".(٢)

لقد كان جريرا شاعرا فحلا مقدما وقد شهد هو لنفسه وشهد له غيره من الأعراب والخلفاء والنقاد والرواة.

- قال هو عن نفسه : " لقد بحرت الشعر بحرا"

- وقال :" إني لمدينة الشعر التي منها يخرج واليها يعود وفي رواية " أنا مدينة الشعر"(٣)

- وقال ابن سلام الجمحي ": لم يتصل الشعر في ولد أحد من فحول الجاهلية ما اتصل في ولد زهير، و في ولد أحد من الإسلاميين ما اتصل في ولد جرير وقدمه ابن سلام علي غيره من الشعراء حتى جعله رأس الطبقة الأولي من الإسلاميين.

- و قال عنه علاء العنبري " يجئ جرير سابقا ومصليا وسكيتا . (٤)

---

(١) الأغاني / جـ ٧/ صـ٣٧.

(٢) الأغاني / جـ ٧ / صـ٥٥.

(٣) الشعر والشعراء / جـ ١، صـ ٤٦٧ .

(٤) طبقات فحول الشعراء / جـ ٢، صـ٣٧٥ . وانظر الموشح ، صـ ١٧٣ .

- وقال جرير لرجل من بني طهية : أينا أشعر أنا أم الفرزدق ؟ فقال له أنت عند العامة وهو عند العلماء فصاح به جرير :أنا أبو حزرة غلبته ورب الكعبة ما في كل مائة رجل عالم واحد .

- وقال رجل للفرزدق : يا أبا فراس هل تعلم اليوم أحدا رمى معك؟ فقال: لا والله ، ما أعرف نابحا إلا وقد استكان ولا ناهشا إلا وقد انجحر إلا الذي يقول وذكر أبياتا لجرير منها :

لساني وسيفي صارمان كلاهما وللسيف أشوى وقعة من لسانيا

وقال ابن دأب: كما يروي ابن سلام :" وسئل عنهما فقال الفرزدق أشعر عامة وجرير أشعر خاصة"(١)

- و قال بشار العقيلي : كان جرير يحسن ضروبا من الشعر لا يحسنها الفرزدق "(٢)

- و يروي ابن سلام أنه " لما بلغ الأخطل تهاجي جرير والفرزدق قال لابنه مالك انحدر إلى العراق حتى تسمع منهما وتأتيني بخبرهما فلقيهما ثم استمع فأتى أباه فقال : جرير يغرف من بحر والفرزدق ينحت من صخرً فقال الأخطل : فجرير أشعرهما "(٣)

- و لما سئل النصيب عن أشعر الناس قال : أخو بني تميم .

- و قال سُبَّة بن عقال وكان عند هشام بن عبد الملك وقد سئل عن الشعراء الثلاثة " أما أغزرهم بحرا وأرقهم شعرا وأهتكهم لعدوه سترا الأغر الأبلق الذي إن طلب لم يسبق وإن طلب لم يلحق فجرير"(٤)

- و قال بعض الرواة : كان جرير ميدان الشعر من لم يجر فيه لم يرو شيئا(٥) .

---

(١) طبقات فحول الشعراء / جـ ٢، صـ ٢٩٩ .

(٢) طبقات فحول الشعراء / جـ ٢، صـ ٣١٤ .

(٣) طبقات فحول الشعراء / جـ٢، صـ ٤٥١ .

(٤) الأغاني / جـ ٧ ، صـ ٦٩

(٥)الأغاني ، جـ٧، صـ ٣٨.

- و قال ابن قتيبة : " كان جرير من فحول شعراء الإسلام ويشبه من شعراء الجاهلية الأعشي .

- و قال الفرزدق :" ما أحوجه مع عفته إلى صلابة شعري وما أحوجني إلى رقة شعره "(١)

وقد سار شعر جرير كثيرا بل كان أكثر أهل زمانه سيرورة في الشعر حتى لقد قال الفرزدق " لقد رزق جرير سيرورة من الشعر لم أرزقه.

- و قال الفرزدق مرة " لقد أوتي جرير من سير الشعر ما لم نؤته " حتى لقد اتهمت الجن بإذاعتها .

ولقد أجاد جرير في فنون كثيرة منها : المديح والهجاء والرثاء والغزل وشهد له بذلك بعض العرب وبعض الرواة ولقد روى ابن سلام قال : لقيت أعرابيا أعجبني ظرفه وروايته فقلت له أيهما عندكم أشعر ؟ (يعني جريرا والفرزدق) فقال بيوت الشعر أربعة : فخر ومدح وهجاء ونسيب وفي كلها غلب جرير فقال في الفخر:

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا

وقال في المدح:

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح؟

وقال في الهجاء

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

وقال في النسيب:

إن العيون التي في طرفها حور قتلتنا ثم لم يحيين قتلانا

(١) الشعر والشعراء / جـ ١، صـ٤٦٦.

وقيل إنه تفوق في الرثاء أيضا وذلك في قصيدته التي يرثي فيها زوجته أم حزرة والتي يقول فيها

لولا الحياء لها جني استعبار ولزرت قبرك والحبيب يزار

شعره :

يذهب شعر جرير في أغراض كثيرة أهمها ما يأتي :

أ- الهجاء :

الهجاء هو الفن الشعري الذي لم يستطع شاعر التحم معه أن يجاريه أو يباريه فلقد تفوق جرير في هذا الفن تفوقا عظيما " وكان يعرف كيف يريش سهامه ويسددها إلى نحور خصومه محملا لها كل ما يمكن من سموم"(١) ولذلك نرى مروان بن أبي حفصة يشهد لذلك فيقول :

ذهب الفرزدق بالفخار وإنما حلو الكلام ومره لجرير

وكان إذا هجا أمض وآلم خصمه ، وأظهر ما فيه التهكم والاستهزاء بخصمه ورميه بما يضحك منه الناس ، ولذلك كان يقول لبنيه إذا مدحتم فلا تطيلوا المادحة وإذا هجوتم فخالفوا ويقول : إذا هجوت فأَضْحِكْ .

وكان إذا هجا عيَّر بالمثالب وتعرض للأعراض وشنع بالآباء والأجداد ، ولكن يجب أن يلاحظ أنه لم يبدأ أحدا بالهجاء بل كان ينتقم ممن أذاه وظلمه وظلم قومه أو تعرض له بالإهانه وأعان عليه ولذلك قال له الحجاج : علام تشتم الناس وتظلمهم ؟ فقال : والله إني ما أظلمهم ولكنهم يظلمونني فأنتصر" وقيل له مرة علام تقذف المحصنات ؟ قال إنهم يبدءونني ثم لا أعفو.

لقد كان جرير سليط اللسان هجاء ، وكان هجاؤه أشبه بريح عاصفة تقتلع من يتعرض له وكان بارعا في السخرية وتصوير الخصم في صورة مضحكة حيث يلبسه ثوب المذلة والصغار وكان كثيرا ما يستخدم الألفاظ التي تدل علي

(١) العصر الاسلامي / صـ ٢٨٨.

الاستخفاف والخزي ولعل قصيدة في الهجاء لم تبلغ ما بلغت قصيدته التي يرد فيها علي النمير الراعي والتي يقول فيها:

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا (١)

ومن أمثلة هجائه المر قوله في الفرزدق :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا أبشر بطول سلامة يا مربع (٢)

وغير ذلك كثير جدا ويتجلى هذا الغرض بكل وضوح في نقائضه التي خاضها ضد من التحم معه خاصة الفرزدق والأخطل .

والحق أنه كان عنيفا في هجائه شديدا في سخريته مؤلما في قسوته وخاصة حينما يتعرض للحرمات والأعراض .

المدح :

لجرير مدائح كثيرة في شخصيات عديدة فلقد مدح الخلفاء الأمويين وأبناءهم و إخواتهم ومدح الولاة الذين اتصل بهم وعلى رأسهم الحجاج بن يوسف الثقفي .

وهو يعنى كثيرا بتصوير شخصية الممدوح وخاصة الولاة الذين كان له اتصال وثيق بهم وألفة معهم، يقول مادحا الحجاج وقد صورة مدافعا عن خلافه المسلمين ومحاولا إرساء الحكم وتوطيد السلطان :

ماض علي الغمرات يمضى همه والليل مختلف الطرائف داجي (٣)

ويمضي فيصور هؤلاء الولاة في صورة الأبطال الصناديد المدافعين عن الخلافة والخلفاء فهو يذكر أعمال الممدوحين بالإضافة إلى تصوير شخصيتهم تصويرا رائعا .

---

(١) الديوان ، صـ ٦١ .

وقد عرفت هذه القصيدة في تاريخ الشعر العربي بالدامغة والدماغة والفاضحة والمنصورة ، ويروي الرواة في نظمها قصة طريفة .

(٢) الديوان ، صـ٢٦١

(٣) الديوان ،صـ٧٠.

وحينما يمدح الخلفاء الأمويين يهتم بوصفهم بصفات دينية كالعدل والآمانه والورع وإقامة الحدود والفرائض والتمسك بالكتاب والسنة ويركز على نسبهم إلى قريش وأصلهم الرفيع وكرمهم وسخائهم وتظهر مثل هذه المعاني في قوله في مدح عبد الملك بن مروان :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح (١)

ويقول في مدح عبد العزيز بن الوليد :

ألست ابن الأئمة من قريش وأرحبها بمكرمة ذراعا(٢)

وهو دائما يجتهد في تصوير محاسنهم وإظهار مكارمهم وأصلهم وشرفهم وفضلهم وهو في كل ذلك يستمد كثيرا من المعاني الدينية والشمائل الخلقية ويتجلى مثل ذلك في قوله الذي يمدح فيه هشام بن عبد الملك :

وحبل الله يعصمكم قواه فلا تخش لعروته انفصاما (٣)

وفي قوله:

تباشرت البلاد لكم بحكم أقام لنا الفرائض واستقاما(٤)

ويلاحظ على مدائح جرير أنها لم تطل كما طال هجاؤه وأنه اتخذ هذه المدائح تقربا وتزلفا إلى الحكام والولاة ؛ ولذا طبعت بطابع النفعية والاستجداء ، وقد اتخذها وسيلة للتكسب ومن ثم اتسمت بالشكوى والتوجع والأنين لاستمالة الممدوح واستعطافه وذلك كما يظهر في قوله الذى يمدح فيه الحجاج :

ألا نشكو إليك زمان محل وشربَ الماء في زمن الجليد

ومعتبة العيال وهم سغاب على در المجالحة الرقود (٥)

---

(١) الديوان / صـ٧٤.

(٢) الديوان ، صـ٢٧٦.

(٣) الديوان صـ٣٨١.

(٤)الديوان صـ٣٨١ .

(١) الديوان / صـ ٩٤ .

والحق أن جريرا بمدائحه الأمويين قد صار داعية لهم بلا مبالغة

٣- الغـزل

لقد أجاد جرير في الغزل الذي جاء عنده رقيقا أيما رقة ولعل ذلك راجع إلى رقة طبع جرير وصفاء نفسه.

وأكثر غزله كان في وصف زوجاته من حيث الوقوف علي قسامة الوجه وملاحة القد وقد عبر فيه عما يكنه نحوهن من حب وود .

وهو في غزله يقف على الأطلال ويرنو إلى بقايا الديار – ديار المحبوبة – كعادة الشعراء العرب ؛ لأنها تذكره بالحبيب الذي كان فيها ثم ظعن فيستعيد الذكريات ويجترها فيهتف قائلا :

ألا حي المنازل والخياما وسكنا طال فيها ما أقاما

منازل قد خلت من ساكنيها عفت إلا الدعائم والثماما

محتها الريح والأمطار حتى حسبت رسومها في الأرض شاما(١)

ويدعو للطلل بالبقاء فيقول :

بقيت طُلولك – يا أميم– على البلى لا مثل ما بقيت عليه طلول(٢)

وهذا يدل علي ما يكنه للمحبوب من عشق ، وهيام والحق أنه يقف كثيرا على الأطلال محييا ومسترجعا الذكريات وداعيا لها بالسقيا والبقاء وبالإضافة إلى ذلك يتحدث عن مشاعره تجاه المحبوبة من حزن وفرح وعشق وصبابة وهوى فإذا ما دنا الرحيل خيم الحزن عليه وإذا ما كان اللقاء ماجت بنفسه مشاعر الفرح وانظر إلى هذين البيتين يستبن لك ذلك ، يقول في منظر الوداع

أقول لصُحبتي لما ارتحلنا ودمع العين منهمر سجامُ

أتمضون الرسوم ولا تحيا كلامكم علي إذن حرام (١)

(١) الديوان / صـ٤٠٥.

(٢) الديوان ،صـ٣٥٤ .

ويقول ساعة اللقيا:

فلما التقي الحيان ألقيت العصا ومات الهوى لما أصيبت مقاتله(٢)

ويقف عند المحبوبة واصفا إياها ،مصورا شغفه بها ومتحدثا عن الوجد الذي شفه فيقول:

أعالج برحا من هواك وشفني فؤاد إذا ما تذكرين خفوق (٣)

ويتحدث كما يتحدث العشاق المولهون المدلهون عن الصبابة والهوى والعشق والجوى ويشير إلى ذكرياته وإلى الوشاة والعاذلين ويدير أحيانا قصصا جميلا مملوءا بالخيال كما يذكر أحيانا الوعود الكاذبة ومنعة المحبوبة وحجبها وإقصاءها وغير ذلك من المعاني التي دارت لدى العشاق العذريين .

وله بالإضافة إلى ذلك غزل حسي يصور فيه محبوبته تصويرا ماديا فيصف الوجه وما به من خدود وعيون وشعر وجيد ولعل من أجمل ما يذكر في ذلك قوله :

إن العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحبين قتلانا

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله إنسانا(٤)

ويتحدث عن الفم الأحوى وما يحوي من أسنان براقة لامعة متلالئه كأنها المزن أو البرد فيقول :

تجري السواك على أغرَّ كأنه برد تحدر من متون غمام (٥)

و يصف الخدود الأسيلة والجيد الطويل والأرداف الثقيلة ورشاقة القوام الذي يشبه غصن بان .

---

(١) الديوان ، صـ ٣٨٦.

وفي رواية للبيت الثاني ، تمرون الديار ولم تعوجوا : كلامكم عليَّ إذن حرام

(٢) الديوان ، صـ٣٥٩.

(٣) الديوان / صـ٢٩٩.

(٤) الديوان ، صـ ٤٥٢.

(٥) الديوان ، صـ ٤١٦.

لقد استطاع جرير أن ينسب نسبيا رائعا، ومع ذلك يقول " ما عشقت قط ولو عشقت لنسبت نسبيا تسمعه العجوز فتبكي على ما فات من شبابها .

الرثاء :

تفوق جرير في فن الرثاء وذلك لما تمتع به من نفس صافية وطبع رقيق وحس دقيق وعواطف جياشة ووفاء جميل ولذلك اهتزت نفسيته اهتزازا عظيما حينما رثى زوجته وابنه و حتى حينما رثى خصمه الفرزدق وكأنما كان يرثي نفسه ورثى أخويه وبعض من اتصل بهم من الخلفاء والولاة.

لقد التاعت نفس جرير وروعت بالموت فراح يبكي ويحزن ويتألم ، يقول في رثاء زوجته (خالدة) أم حزرة :

لولا الحياء لها جني استعبار ولزرت قبرك والحبيب يزار
ولقد نظرت وما تمتع نظرة في اللحد حيث تمكن المحفار
ولهت قلبي إذ علتني كبرة وذوو التمائم من بنيك صغار(١)

ولروعة هذه القصيدة وقوة تعبيرها عن عاطفة حزينة جياشة وقفت نساء قبيلة الفرزدق ينحن بها على النوار زوج الفرزدق حينما ماتت .

لقد ترقرت مآقيه حزنا عندما مات ابنه سوادة وتجرع الألم غصصا عليه فقال :

قالوا نصيبك من أجر فقلت لهم من للعرين إذا فارقت أشبالى
فارقتني حين كف الدهر من بصري وحين صرت كعظم الرمة البالى (٢)

لقد تفجع على ابنه تفجعا شديدا حتى لقد تمثل بشار بهذه القصيدة في وفاة ابنه .

ورثى خصمه الفرزدق رثاء حزينا داميا حارا فقال :

---

(١) الديوان ،صـ١٥٢.

(٢) الديوان ، صـ٣٢٥، ٣٢٦.

فلا حملت بعد الفرزدق حامل ولا ذات حمل من نفاس تعلت
هو الوافد المجبور والحامل الذي إذا النعل يوما بالعشيرة زلت(١)

وله إلى جانب ذلك أبيات أخرى في رثاء الفرزدق وله أبيات في رثاء الأخطل .

سمات شعر جرير:

تكثر القصائد في شعر جرير ويبدأ أكثرها بمطالع تقليدية ويغلب علي هذه المطالع الحديث عن الأطلال والدمن وبقايا الديار والربع الذي هجره الأحباب وغالبا ما يبدأ حديثه بالأساليب الإنشائية استفهاما أو أمرا .

وتشيع عنده مجموعة من الأوزان أهمها الطويل والوافر ثم الكامل والبسيط وكان مغرما بقافية الراء والدال واللام والنون .

وقد جاءت الموسيقا عنده واضحة في الوزن والقافية عذبه رقيقة.

وأما الأسلوب فقد جاء متنوعا ما بين الخطاب إلى الغيبة وما بين الأسلوب الخبري والإنشائي ، ولا نعدم عنده المحسنات البديعية من مقابلة وطباق، كما يبدو عنده التكرار والمبالغة والتأثر بالإسلام قرآنا وحديثا وقصصا دينية.

لقد كان شعره " لا يبارى في عذوبة كلمة وحلاوة " نغمة (٢)، وقد " جرت أشعاره صافية كأنها الجدول الرقراق ، أشعار تلذ الأذن بكمال جرسها وتلذ النفوس والأفئدة " بجمالها ورقتها وعذوبتها وحلاوتها.

---

(١) الديوان /صـ٦٨.

(٢،٢) الديوان العصر الإسلامي / صـ ٢٨٩.